المعهد الفرنسي بدمشق
للدراسات العربية

ثلاث رسائل
لأبي حيّان التوحيدي

عُني بتحقيقها ونشرها
الدكتور ابراهيم الكيلاني

دمشق
١٩٥١

المعهد الفرنسي بدمشق
للدراسات العربية

ثلاث رسائل
لأبي حيان التوحيدي

عُنِيَ بتحقيقها ونَشْرِها
الدكتور ابراهيم الكيلاني

دمشق
1951

١- رسالة السقيفة

٢- رسالة في علم الكتابة

٣- رسالة الحياة

رسائل أبي حيّان التوحيديّ

« فردُ الدّنيا الّذي لا نظيرَ لهُ
ذكاءً وفطنةً وفصاحةً ومُكْنة »

ياقوت : إرشاد الأديب ٦/١٥

« ربما كان التوحيديّ أعظم كتّاب
النثر العربيّ على الإطلاق »

آ. متز : الحضارة الإسلامية
في القرن الرابع الهجري ٣٩٨/١



رسائل أبي حيّان التوحيديّ

مقدّمة

لم تُبق يد الحدثان من آثار التوحيدي[1] إلاّ النزر القليل . وقد أورد ياقوت الرومي في معجمه[2] ثبت كتب التوحيدي فبلغت سبعة عشر كتاباً . وبالرغم من أن هذا الثبت لم يستوفِ جميع آثار التوحيدي ففيه رسائل عدة لم يظهر اكثرها للوجود ، والمعلوم أن التوحيدي أحرق في أواخر حياته كتبه ، ولا ندري فيما اذا كان فقدان اكثر آثاره ناتج عن هذه الفعلة ، غير ان السيوطي وطاش كبري زاده يعتقدان « ان النسخ الموجودة الآن من تصانيفه كتبت عنه في حياته ، وخرجت من قبل حرقها[3] »

ومهما يكن من أمر فإنّ ما تبقى من آثاره وما اكتشف منها أخيراً يدل على حياة فكرية خصبة ، وفعالية وفيرة في التأليف . ومن الرسائل التوحيدية التي لم تنشر البتة ، او التي لم تحظ بنشرٍ مستقل : (١) رسالة السقيفة (٢) رسالة في علم الكتابة (٣) رسالة الحياة . وكل رسالة من هذه الرسائل تكشف ناحية من نواحي فعالية التوحيدي الفكرية والفنية وتساعد على تفهم القضايا العقلية والتيّارات الفكرية التي تأثر بها في عصره أو شارك فيها .

---

(١) راجع أطروحتنا الأولى المقدمة الى جامعة الصوربون عن حياة التوحيدي وآثاره .
I. Keilani : *Abū Ḥayyan At-Tawḥīdī.* Essayiste arabe du IV^e s. de l'Hégire (X^e s.). Introduction à son œuvre. Damas, 1950.

(٢) إرشاد الأريب ١٥/٧–٨ .

(٣) بغية الوعاة ٣٤٨ ، مفتاح السعادة ١/١٨٨

- ١ -

رسالة السقيفة : تمثل جانب النضال بين السنة والشيعة في عصر بني بويه . ذلك العصر الذي اشتدت فيه المنازعات المذهبية والسياسية والفكرية واشترك فيها الناس على اختلاف عقائدهم واعراقهم وتفاوت انصبائهم من العلم والمعرفة.

ولم يفت التوحيدي – وموقفه كمعتزلي من الإمامة والتشيّع معروف – أن يُسهم في هذه الحركة فألّف رسالة السقيفة تحت تأثير عاملين : الحوادث الدامية التي وقعت في زمنه بين السنّة والروافض والتي أسهب ابن كثير في ذكر تفاصيلها[٤] ، والثاني العداوة الشخصية التي تأججت نارها بين التوحيدي من جهة وابن العميد والصاحب بن عبّاد من جهة أخرى ، وهذان الوزيران كانا من أكابر الشيعة في زمانهما ولا ريب في ان التوحيدي قصد في تأليف رسالته إغاظتهما والانتقام منهما لأنهما أساءا إليه وحرماه رفدهما .

وقد كانت الرسالة عرضة على مر العصور لزيادات وتحريفات كثيرة حتى ليشعر القارئ عند مقابلة نصوصها المطبوعة بثقل الاضافات التي كادت تضيع معالمها الأصلية . ولعلّ الناس فتنوا بروعتها الانشائية واسلوبها البلاغي اكثر من الافكار التي تضمنتها والغاية التي قصد إليها مؤلفها فكان ذلك حافزاً لهم على التصرف في شكلها الخارجي زيادة ونقصاً دون مساس الفكرة الاساسية وهي الدفاع عن خصوم علي وهدم أحقيته بالخلافة .

ولما صح العزم على طبع هذه الرسالة رأينا الرجوع الى مصادر مخطوطة جديدة فكان اعتمادنا على :

١ : مخطوطة الاسكوريال[٥] المحفوظة تحت رقم ٥٣٨ ، مكتوبة بخط مغربي واضح ، ضمن مجموع يحوي رسائل أدبية وتاريخية . وقد أرخت هذه

---

(٤) البداية والنهاية ٢٣٢/١١–٢٥٢ وغيرها .

(٥) راجع : Hartwig Derenbourg, *Les Manuscrits Arabes de l'Escurial*, Paris, 1884. T. I, p. 366.

الرسائل سنة ٧٨٥ هجرية . وقد رمزنا اليها بحرف « ك » .

٢ : مخطوطة دار الكتب الظاهرية رقم ٢٤٠ عام ضمن مجموع يحوي سبع عشرة رسالة متنوعة كتب على الصفحة الاولى من المجموع « دخل في نوبت الفقير اليه تعالى عز ثنائه محمد حسن ابن السيد عيد القوتلي في ٤ شعبان الذي هو في سنة ١٢٦٢ .

والمخطوطة مكتوبة بخط نسخي جميل . ورمزنا اليها بحرف « ظ »

٣ : مخطوطة السيد محمود افندي حمزه[٦] وعنوانها « غنية الطالب شرح رسالة الصدّيق لعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما » وكتب في الصفحة الأخيرة: وكان الفراغ من نقلها في يوم الاثنين ١٧ محرم الحرام سنة الف وثلاثماية واثنين وثلاثين من الهجرة النبوية على يد كاتبها عبداللطيف المكنّى بالروّاس. وقد أشرنا اليها بحرف « ح »

- ٢ -

اما رسالة في علم الكتابة فهي من الآثار الفريدة في اللغة العربية اثبت فيها التوحيدي بحكم مهنة الوراقة التي زاولها سعة اطلاعه ومعرفته بالخطوط وانواعها ودقائق صنعة الخط . والرسالة محفوظة في مكتبة فيينا[٧] كما ذكر بروكلمان[٨] ، ومنها نسخة مصورة في مكتبة جامعة فوآد الأول في القاهرة رقم ٢٤٠٩٠ .

(٦) هو محمود بن محمد نسيب حمزة الحسيني الحمزاوي مفتي الديار الشامية وأحد كبار علمائها ولد بدمشق سنة ١٢٣٦هـ. ونشأ وتوفي فيها سنة ١٣٠٥ . والمخطوطة المذكورة في حوزة استاذنا معالي خليل مردم بك تفضل فأعارنيها . فله الشكر والمنة .

(٧) Krafft : *Die ar, pers. und turk Hass. der k. k.* Orientalischen Akademie zu Wien 1842.

(٨) Brockelmann : *Supp.* I, p. 436.

وقد نشر المستشرق الاميركي ف . روزنتال هذه الرساله مع ترجمتها الانكليزية في مجلة *Ars Islamica.* Vols. XIII - XIV, 1948.

وتعتبر هذه الرسالة من أقدم مـــا نشر عن الخطوط العربية وقواعدها وانواعها .

- ٣ -

رسالة الحياة : مخطوطة فريدة محفوظة في مكتبة شهيد علي باستانبول رقم ١١٨٦ كتبت بخط فارسي مقروء سنة ٩٧٣ هجرية وهي رسالة فلسفية صوفية في موضوع مستقل على شاكلة ابحاث كتاب المقابسات الذي الفه التوحيدي من سنة ٣٦٠ الى ٣٩١ . ولعلّ في اظهار هذه الرسائل الثلاث ما يساعد على فهم أدب التوحيدي وأفكاره . وبالله المستعان .

دمشق في ٢٦ مايس ١٩٥١

ا . ك .

الرموز المستعملة في طبع هذه المجموعة

[ ] علامة على النقص .

< > علامة على الزيادة .

«< >» إشارة الى ما سقط في الأصل واقترحنا إضافته .

(.) بياض في الأصل او الأصول .

* تصحيح مشكوك فيه .

× لم نستطع اصلاح الخطأ او قراءة النص .

ESCORIAL
Arabe 538

نموذج من رسالة السقيفة — مخطوطة الاسكوريال رقم ٥٣٨.

... إلى ... بن ... كرم الله وجهه
ورضي الله تعالى عنهم اجمعين

قال القاضي ابو حامد احمد ابن بشر المروذي حدثني المراكبي ابو محمد اسحاق
ابن احمد بمكة شرفها الله تعالى قال حدثنا ابو محمد ابن ميسرة قال
حدثنا محمد بن فليح حدثنا عيسى بن داب حدثنا صالح ابن كيسان ويزيد
ابن رومان وكان معلم عبد الملك ابن مروان قال حدثنا هشام ابن
عروة عن ابيه حدثنا ابو النفاح مولى ابو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه
قال سمعت ابا عبيدة يقول لما استقامت الخلافة لابي بكر رضي الله عنه
بين المهاجرين والانصار ولحظ بعين المهابة والوقار وان لم يزل كذلك
بعد هنية كاد الشيطان بها فدفع الله شرها وادحض عسرها ويسر خيرها
وازاح ضيرها ورد كيدها وقصم ظهر النفاق والفسق بين اهلها بلغ ابا
بكر الصديق رضي الله عنه عن علي رضي الله عنه تلكؤ وشماس وتهمهم
ونفاس وكره ان يتمادى الامر فيبدوا العورة وتشتجر ذات البين
ويصير ذلك دريئة لجاهل مغرور وعاقل ذي دهاء وفجور وصا...
سلامة ضعيف الجنان خوار اللسان دعا في خضرته في خلوة وعنده عمر
ابن الخطاب رضي الله عنه وحده وكان عمر رضي الله عنه جليسا له ظهيرا
معه يستضيء برايه ويستملي على لسانه فقال له يا ابا عبيدة ما ايمن ناصيتك
وابين الخير بين عارضيك ولقد كنت من رسول الله صلى الله عليه وسلم
بالمكان المحوط والمحل المغبوط ولقد قال فيك في يوم مشهود ابو عبيدة
امين هذه الامة وطالما اعز الله الاسلام بك واصلح فساده على يديك
ولم تزل لله للدين ملجا وللمؤمنين روحا ولاهلك ركنا ولاخوانك ...
وقد اردتك لامر ما بعد خطره مخوف وصلاحه معروف وان لم
يند ملجرحه بسيرك ورفقك ولم تنتجب حيته برقيتك فقد وقع
الياس واحتج بعدك الى ما هو امر من ذلك واعلق واعسر منه
واعلق والله تعالى اسال تمامه بك ونظامه على يديك فتات له
يا ابا عبيدة وتلطف جهدك وانصح لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم
وهذه العصابة غير آل جهدا ولا قال حمدا والله كالئك وناصرك

الشقاق وبالله العوذ من كل كارث وعليه التوكل في كل حادث ...
ابا حفص لي مجلسك نافع القلب مبرود الغليل فسيح اللبان فليس
وراء ما سمعت الا ما يشد الازر ويضع الاصر ويجمع الالفة
ويرفع الكلفة ويوسع الزلفة بمعونة الله وحسن توفيقه
رضي الله عنه فانصرف عمر رضي الله عنه راجعا
فهذا اصعب ما مر بناصيتي بعد فراق رسول
الله صلى الله عليه وسلم
تمت الرسالة
بعون الله
تمام

نموذج من رسالة السقيفة — مخطوطة دار الكتب الظاهرية بدمشق رقم ٢٤٠.

رِسَالَةُ السَّقِيفَةِ

رسالة السقيفة

قال ابو حيّان علي بن محمد التوحيدي البغدادي : سَمَرْنا ليلةً عند القاضي أبي حامد أحمد بن بِشْر المَرْوَرّوذي العامري[1] ببغداد في دار ابن حبشان في شارع الماذُبان . فتصرّف الحديث به كلّ متصرّف ، وكان مِعَنّاً ، مِفَنّاً ، مِخْلَطاً ، مِزْيلًا ، غزير الرواية ، له في كل جوّ متنفّس ، ومن كل نار مُقتبس ، فجرى حديث السقيفة ، وشأن الخلافة ، فركب كلٌّ مناً مَتناً ، وقال قولًا ، وعرّض بشيء ، ونزع الى فنّ ، فقال : هل فيكم من يحفظ رسالة أبي بكر الصدّيق لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما وجوابَ علي له ومبايعته إيّاه عقب تلك المناظرة ؟ فقالت الجماعة التي بين يديه : لا والله ! قال : هي من بنات الحقائق ، ومخبآت الخزائن في الصناديق ، ومُذْ حفظتُها ما رويتُها إلّا

(١) استاذ ابي حيّان التوحيدي توفي سنة ٣٦٢ ، ويعده ابن خلكان من ائمة الفقه الذي « لا يشق غباره فيه » وكان التوحيدي كثير الملازمة لمجالس أبي حامد ، والنقل عنه ، والرواية لاخباره حتى قال ابن ابي الحديد : إن التوحيدي « يسند الى القاضي أبي حامد كل ما يريد أن يقوله من تلقاء نفسه اذا كان كارهاً انه ينسب اليه » . وقد علّل التوحيدي تعلقه باستاذه فقال : « وإنما اولع بذكر ما يقول هذا الرجل لأنه أنبل من شاهدته في عمري ، وكان بحرًا يتدفق حفظًا للسير ، وقيامًا بالأخبار ، واستنباطًا للمعاني ، وثباتًا على الجدل ، وصبرًا في الخصام . »

وفيات الأعيان ١٨/١ ، شرح النهج ٥٩٢/٣ ، البصائر والذخائر (مخطوط)

للمهلّبي [١] في وزارته ، وكتبها عنّي في خلوةٍ وقال : لا أعرف على وجه الارض رسالةً أعقلَ منها ولا أبْيَنَ ، وإنها لتدلُّ على علمٍ وحلم ، وفصاحة وفقاهة ، ودهاء ودين ، وبُعْد غَوْر ، وشدة غَوْص . فقال له العبّاداني [٢] : ايها القاضي ! لو أتممْتَ المِنّةَ بروايتها سمعناها مثله ، ونحن أوعى لها عنك من المهلّبي ، وأوجبُ ذماماً عليك ، فاندفع فقال : حدّثنا الخُزاعي بمكة قال : حدّثنا ابن مَيْسَرَة [٣] عن محمد بن فُلَيح عن عيسى بن دَأْب عن صالح بن كَيْسان [٤] ويزيد بن رُومان [٥]

(١) هو الوزير البويهي ابو محمد الحسن بن محمد المهلّبي (٢٩١–٣٥٢) تولى الوزارة لمعزّ الدولة سنة ٣٣٩ ، والمهلّبي شخصية قوية لعبت دورًا في عصر بني بويه ، كان اديباً يعطف على اهل الأدب والعلوم . وقال ياقوت : « كان المهلّبي طيّب الحديث ، واكثره مذاكرةً بالأدب وضروب الحديث لكثرة من يجمعهم من العلماء والكتّاب والندماء . » وكان الصابئ يقول : «كان ابو محمد يخاطب بالأستاذية» راجع اخباره في : تجارب الامم ٢/١٢٣–١٩٨ ، ارشاد الأريب ٩/١٣٣–١٤٦ ، وفيات الاعيان ١/١٤٢

(٢) نسبةً الى عبّادان وهي بليدة بناحية البصرة وسط البحر ، وكان يسكنها جماعة من العلماء والزهّاد للعبادة والخلوة . وابو بكر هذا هو محمد بن الفضل بن محمد بن جعفر يحيى بن سعيد بن يسر القرشي العبّاداني . سكن البصرة ، وكان ابوه شيخ الصوفية في وقته ، وابو بكر احد المذكورين بالصلاح والخير توفي سنة ٤٠١ هـ.
الانساب و٣٧٩ ظ

(٣) في ظ : ابو محمد ابن ميسرة .

(٤) صالح بن كيسان المدني ابو محمد مؤدب اولاد عمر بن عبد العزيز ، روى الاحاديث عن ابن عمرو عروة وسالم ونافع ، وروى عنه ابن جريج ومعمر وابن اسحاق ومالك وابراهيم بن سعد وغيرهم . قال الذهبي عنه : رمي بالقدر . مات سنة ١٤٠ هـ.
خلاصة تذهيب الكمال للخزرجي ١٤٥

(٥) مولى آل الزبير ، روى الحديث عن ابن الزبير وعروة ، وروى عنه جرير بن حازم وابن اسحق ونافع القارئ وطائفة غيرهم . قال ابن سعد : كان عالمًا ثقة بالحديث توفي سنة ١٣٠ هـ.
المصدر السابق ٣٧١

وكان معلم عبد الملك بن مروان قال : حدّثنا هشام بن عُروة[١] عن أبيه قال : اخبرنا ابو التّياح مولى أبي عبيدة بن الجرّاح قال : سمعتُ ابا عبيدة بن الجرّاح يقول : لما استقامت الخلافة لأبي بكر رضى الله عنه بين المهاجرين والأنصار ، لَحظَ بعين الهيبة والوقار ، وان كان لم يزل كذلك ، بعد هَنَةٍ كادَ الشيطان بها ، فدفع الله شرّها ، ودَحَض[٢] عُرّها ، ويَسّر خيرَها ، وأزاحَ ضَيْرها ، وردّ كيدها ، وقصَمَ ظهر النفاق والفسق بين أهلها ، بَلَغَ أبا بكر الصدّيق عن علي تَلَكّؤٌ وشِماس[٣] ، وتهمهمٌ ونفاس[٤] ، وكره أن يتمادى الحال وتبدو العَوْرة ، وتنفرجُ ذات البين ، ويصير ذلك دُرْبة[٥] لجاهلٍ مغرور ، أو عاقل ذي دهاء ، او صاحب سلامة ضعيف ، خوّار العِنان .

دعاني فحضرته في خلوة وعنده عمر بن الخطاب وحده ، وكان عمر قبساً[٦] له ، ظهيراً معه ، يستضيء بنيرانه[٧] ، ويستملي على

---

(١) هشام بن عروة بن الزبير بن العوام الأسدي ، روى الحديث عن ابيه وزوجته فاطمة بنت المنذر وأبي سلمة وغيرهم ، وروى عنه ايّوب وابن جُريج ومعمر وغيرهم . قال ابن المديني : له نحو اربعمائة حديث . وقال ابن سعد : ثقة حجة . وقال ابو حاتم : إمام . قال ابو نعيم توفي سنة ١٤٥ وقيل ٤٦ هـ.

المصدر السابق ٣٥٣

(٢) في ظ : أدحض .

(٣) الشماس : المعاندة ، واصلها للفَرَس اذا استعصى على راكبه فلم يمكنه من الركوب .

(٤) الهمهمة : الكلام الخفي ، النفاس : المنافسة .

(٥) ظ : دربة

(٦) ظ : جليساً .

(٧) ظ : برأيه .

لسانه، قال لي: يا ابا عبيدة! ما أيْمَنَ ناصيتَك، وأَبْيَنَ الخيرَ بين عارضيك، ولقد كنت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحوط، والمحل المغبوط، ولقد قال فيك في يوم مشهود: أبو عبيدة أمين هذه الأمة، وطالَ ما أعزَّ الله بك الاسلام، وأصلح فساده على يديك، ولم تزل للدين ملجأً، وللمؤمنين روحاً، ولأهلك ركناً، ولإخوانك رِدْءاً[1]، قد اردتك لأمرٍ له ما بعده، خطره مخوف[2]، وصلاحه معروف، ولئن لم يندمل جرحه بيسارك[3] ورفقك، ولم تُجَبْ[4] حيّتُه برُقيتك، فقد وقع اليأس، وأعضل البأس؛ واُحتيج بعدك الى ما هو أمرُّ من ذلك وأعلق، وأعسر منه واغلق، والله أسأل تمامه بك ونظامه على يديك، فتأَتَّ له يا أبا عبيدة، وتلطَّف فيه، وانصح لله تعالى ولرسولِهِ ولهذه العصابة غيرَ آلٍ جُهدًا، ولا قالٍ حمدًا، واللهُ كالئك وناصرُكَ، وهاديك ومبصِّرك، وبه الحول والتوفيق[5]؛ امضِ الى علي واُخفِض جناحك له، واُغضُضْ من صوتك[6] عنده، واعلم أنه سُلالة أبي طالب، ومكانُه ممن قد فقدناه بالأمس [صلى الله عليه وسلم] مكانُه؛ وقُلْ له: البحر مَغْرَقة؛ والبر مَفْرَقة، والجوُّ أكْلَف[7] والليل أغلف[8]، والسماء جَلْواء،

(١) ظ: معيناً.
(٢) ظ: قد أردتك لأمر ما بعد خطره مخوف.
(٣) ظ: بسبرك.
(٤) ظ: تستجب.
(٥) ظ: القوة.
(٦) ك: واغضض صوتك.
(٧) أكلف: من الكلف وهو لون بين السواد والحمرة، او حمرة كدرة تعلو الوجه.
(٨) أغلف: كأنه وضع في غلاف، فهو شديد الظلمة والخفاء.

والأرض صَلْعاء ، والصعود متعذر ، والهبوط متعسّر ، والحق رؤوف عطوف ، والباطل شنوف عنوف ، والعُجْب قداحة[١] الشر ، والضِّغْن رائد[٢] البَوار ، والتعريض سِجار الفتنة ، والقِحة[٣] ثَقُوب العداوة ، وهذا الشيطان متكيء على شماله ، متحيّل[٤] بيمينه ، نافخ حِضْنيه[٥] لأهله ، ينتظر الشّتات والفُرقة ، ويدبّ بين الأمة بالشحناء والعداوة ، عنادًا لله ولرسوله ولدينه[٦] ، يُوسوس بالفجور ، ويُدلي بالغرور ، ويُمنّي أهل الشرور ، ويوحي الى أوليائه بالباطل ، دأباً له مذ كان على عهد ابينا آدم ، وعادةً منه منذ أهانه الله في سالف الدهر ، لا يُنجى منه إلّا بعضّ الناجذ على الحق ، وغضّ الطّرْف عن الباطل ، ووطء[٧] هامة عدوّ الله وعدوّ الدين بالأشدّ فالأشدّ ، والأجدّ فالأجدّ[٨] ، واسلام النفس لله تعالى فيما حاز رضاه ، وجنّب سخطه ، ولا بدّ الآن من قولٍ ينفع إذ قد أضرّ السكوت ، وخيفَ غِبُّه . ولقد أرشدك من أفاء[٩] ضالّتك ،

(١) ك : والعتب ، ظ : قادحة .

(٢) ظ : زايد .

(٣) ك : الفمة ، ظ : القعة ، ح : المقة . ثَقوب : ما أشعل به .

(٤) ك ، ظ : متخيّل .

(٥) كناية عن استعداده لعمل الشر . ح : ناكح حضنيه ، والحضنان ما تحت العضدين اشارة الى ما ورد من ان الشيطان اذا بلغ مأربه من القاء امر فرح فالصق فخذيه بعضهما ببعض فينكح احد فخذيه الآخر فيولد له .

(٦) ظ : < تألبًا وتأنيسًا > .

(٧) ظ : قطّ

(٨) ح : والأجد فالأجد .

(٩) ظ : أدّى . ح : أقاد . أفاء الشيء اليه : أرجعه .

وصافاكَ من أَحيا مودّتَه لك بعتابك ، وأراد الخيرَ بك مَنْ آثر البقيا معك .

ما هذا الذي تسوِّلُ لك نفسُك . ويدوي به قلبُك ، ويلتوي به عليك رأيُك ، ويتخاوص[١] دونه طرفُك ، ويَسْري فيه ظَعْنُك[٢] ، ويَتَرادُّ[٣] معه نَفَسُك ، وتكثر معه صُعداؤُك ، ولا يفيض به لسانُك؟ أَعُجْمَةٌ بعد إفصاح ، أتلبيسٌ بعد إيضاح ، أَدِينٌ غير دين الله ، أَخُلُقٌ غير خُلُق القرآن[٤] ، أَهُدًى غير هُدى رسول الله ، أَمِثْلي تمشي له الضَّراء[٥] ، أو يدبّ إليه الخَمَر[٦] ، أم مثلك يغصّ[٧] عليه الفضاء ، او يُخْسَفُ[٨] في عينه القمر ؟ ما هذه القَعْقَعَة بالشِّنان ، وما هذه الوَعْوَعة باللسان ؟ إنّك جِدُّ عارف باستجابتنا لله ولرسوله ، وخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبّتنا هجرةً الى الله تعالى ، ونُصْرةً لدينه[٩] في زمانٍ انت فيه في كِنّ الصِّبا ، وخِدْر الغَرارة ، غافلٌ ،

(١) ح : التحاوص . والتحاوص من الحوَص وهو ضيق العين . التخاوص : غض البصر كمن ينظر الى عين الشمس .

(٢) ح : ضغنك .

(٣) ظ،ح : يتردد .

(٤) ظ : الله .

(٥) في اللسان : يقال للرجل اذا ختل صاحبه ومكر به : هو يدبّ له الضرّاء ويمشي له الخمر . والضرّاء ما يوارى من الشجرة ، وأصله أن الذئب يرى الصيد فيستتر له في الشجر حتى يغتاله .

(٦) ظ : الحمراء ، ح : الجمر . وفي اللسان : ما واراك من شيء وادرأت بـه فهو خمر .

(٧) ظ : يضيق ، ح : يتعدى .

(٨) ظ ، ح : يكسف .

(٩) ظ ، ح : لنبيّه .

تُشَبَّبُ وتُربَّبُ[١] ، لا تَعي ما يُراد ويُشاد ، ولا تحصِّل ما يُساق ويُقاد ، سوى ما أنت جارٍ عليه الى غايتك التي إليها غُدِيَ[٢] بك ، وعندها حُطَّ رحلك ، غَيْرَ مجهول القدر ، ولا مجحود الفضل ، ونحن في أثناء ذلك نعاني أحوالًا تزيل الرواسي ، ونقاسي أهوالًا تشيب النَّواصي ، خائضين غِمارها ، راكبين تيَّارها ، نتجرَّع صابَها[٣] ، ونُشرِجُ عِيَابها[٤] ، ونكرع عُبابها[٥] ، ونُحْكم أساسها ، ونُبرِم أمراسها . والعيون تحدِّج[٦] بالحسد ، والأنوف تَعْطس بالكِبْر ، والصدور تستعرُ بالغيظ ، والاعناق تتطاول بالفخر ، والشِّفار[٧] تُشحَذ بالمكر ، والأرض تميد بالخوف ، ولا ننتظر عند المساء صباحاً ، ولا عند الصباح مساءً ، ولا ندفع في نَحْرِ أمرٍ لنا إلّا بعد أن نَحْسُوَ الموتَ دونه ، ولا نتبلَّغ الى شيءٍ إلّا بعد جَرْع الغُصَص معه ، ولا نقوِّم منْآدًا[٨] إلّا بعد اليأس من الحياة عنده ، فادينَ في كل ذلك

(١) ظ : غافل عما يشيب ويريب وكذلك في جميع النسخ المطبوعة . شبَّب : قال النسيب . رَبَّبَ : الولد ربَّاه حتى ادرك . ح : تشبَّبُ . مبني على ما لم يسم فاعله أي ترفع على أيدي المربّين ، لأنّ التشبيب للنار إيقادها ولكل شيء رفعه . او تشبّب أي تقرأ لك الاشعار المحتوية على الغزل كما هو عادة مَنْ يربي الصبية وتربَّب بالبناء للمفعول أي تربى .

(٢) ج : غُديَ .

(٣) الصاب : عصارة شجر مر او الشجر ذاته .

(٤) أشرج العيبة وشرجها : شدَّ عراها والعياب جمع عيبة : وعاء من أدم تجعل فيه الثياب .

(٥) ك : ويروى تتلقى عبابها .

(٦) تحدّج : تحدّق .

(٧) الشفار : جمع شفرة وهي السكين العريض .

(٨) ظ : ولا نقوم بنادٍ ، والمنآد : المعوج .

لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالأب والأم والخال والعم ، والمال والنَّشَب ، والسَّبَد واللَّبَد[١] ، والأهل والولد[٢] ، بطيبِ أنفُس ، وقرّةِ أعيُن ، ورُحب أعطان ، وثبات عزائم ، وصحّة عقول ، وطلاقة أوجه ، وذَلاقة ألسن ، هذا الى خفيّات أسرار ، ومكنونات أخبار كنت عنها غافلًا ، ولولا سنّك لم تكن عنها ناكلًا ، كيف وفوآدك مشهوم[٣] ، وعودك معجوم ، وغيبك مخبور[٤] ، والقول فيك كثير ، والآن قد بَلَغَ الله بك ، وأرهص[٥] الخير لك وجعل مرادَك بين يديك ، وعن علم أقول ما تسمع ، فارتقبْ زمانك وقلِّص إليه أرْدَانك[٦] ، ودَع التحبُّس والتعبُّس[٧] لمن لا يَظْلَع[٨] إليك اذا خطا ، ولا يتزحزح عنك إذا عطا[٩] والامرُ غضّ ، والنفوس فيها مضّ ، وإنّك أَدِيمُ هذه الأمة فلا تَحْلَمْ[١٠] لجاجاً ، وسيفُها العَضْب

(١) السبد : الشعر ، اللبد : الصوف ، كناية عن القليل والكثير .

(٢) ظ ، ح < الهِلَّة والبِلَّة > يقال جاءنا فلان فلم يأتنا بهلّة ولا بلّة أي لم يأتنا بشيء ، والهلّة من الفرح والاستهلال والبلّة من البلل والخير .

(٣) مشهوم : متوقد الذكاء .

(٤) غيبك : ما غاب عن الناس من أطوارك . مخبور ممدوح .

(٥) ظ : أرحض ، ح : رهص . والرِهص : العِرق الاسفل من الحائط ، ورهص الحائط وأرهصه إذا وضع فيه الرهص . وفي القاموس : رهص الله فلانًا جعله معدنًا للخير

(٦) الأردان : جمع رُدْن . وهو أصل الكم أو الكم كله . التقليص : التشمير .

(٧) التحبس : المبالغة في الحبس ووقوف الانسان عند أمر لا يحول عنه . التعبّس : العبوس وعدم البشاشة .

(٨) ظَلَع في مشيه : عرج وغمز في مشيه . ظ : يطلع ، ح : يضلع .

(٩) عطا : همّ على تناول أمر وتصدر له ، وعطا يعطو اذا رفع رأسه ويديه معاً .

(١٠) حلم البعير : كثر حلمه وهو الصغير من القردان او الضخم او دودة تقع في الجلد فتأكله فاذا دُبغ وَهَى موضع الأكل .

فلا تَنْبُ أعوجاجاً ، وماؤها العَذْب فلا تَحُلْ أجاجاً .

ولقد سألتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلم عن هذا الأمر فقال لي : يا أبا بكر ! هو لمن قيل له : هو لك ، لا لمن يقول : هو لي ، ولمن يُقادُ إليه لا لمن يَتَنَفَّج[1] إليه ، والله ! لقد شاورني رسول الله صلّى الله عليه وسلم في الصِهْر[2] ، فذكر فتياناً من قريش ، فقلت : أين انت من عليٍّ ؟ فقال : إني لأكره لفاطمة مَيْعة شبابه ، وحِدّة[4] سنّه ، فقلت له : متى كَنَفَتْهُ يَدُكَ ، ورَعَتْه عينُك ، حَفَّتْ بها البركة ، وأُسْبِغَتْ عليها النعمة مع كلام كثير خطبتُ به عنك ، ورغّبتُه فيك ، وما كنت عرفت منك في ذلك حَوْجاء ولا لَوْجاء[5] ، فقلتُ ما قلتُ وأنا أرى مكانَ غيرِكَ ، وأجِدُ رائحة سواكَ ، وكنتُ لك إذ ذاكَ خيراً منك الآن لي ، ولئن كان عَرَّضَ بك رسول الله صلى الله عليه وسلم [فقد كَنّى عن غيركَ] وإن كان قال فيك ، فما سكت عن سواكَ ، وإنْ تَخَلَّجَ[6] في نفسك شيء فهلمّ فالحكم مرضيّ ، والصوابُ مسموع ، والحقُّ مُطاع ، ولقد نُقِل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عن هذه العصابة راضٍ ، وعلَيها حَدِب ، يسرّه ما يسرها ، ويكيده ما كادها ، ويرضيه ما أرضاها ، ويُسخطه

---

(١) يتنفّج إليه : يتطلع ويرتفع إليه . ظ يتنفخ . ح : يتنفج .

(٢) ظ < في زواج فاطمة ومصاهرة قريش > .

(٣) ظ : < من الصهرة > .

(٤) ظ ، ح : حداثة .

(٥) في القاموس : ما في صدري عوجاء ولا لوجاء : لا مرية ولا شك ، ومالي فيه حوجاء ولا لوجاء ، ولا حويجاء ولا لويجاء اي حاجة .

(٦) تخلّج : اضطرب .

ما أَسخطها ، ألم تعلم أنه لم يدع أحدًا من اصحابه وخلطائه ، وأقاربه وسجرائه[١] إلّا أبانه بفضيلةٍ ، وخصّه بمزيّة ، وأفرده بحالة لو أصفقت الأمة عليه لكان عنده إيالتها[٢] وكفالتها وكرامتها وعزازتها ؟ أتظنّ انه صلى عليه وسلم ترك الأمـة بشرًا سدىً ، بددًا عدىً ، عباهل مباهل[٣] ، طلاحى[٤] مفتونة بالباطل ، مغبونة عن الحق ، لا ذائد ولا قائد[٥] ، ولا حائط ولا رابط ، ولا ساقيَ ولا راقيَ ، ولا هاديَ ولا حاديَ ، كلا ! والله ما اشتاق الى ربه تعالى ، ولا سأله المصير الى رضوانه إلّا بعد أن ضرب الصُّوى[٦] ، وأوضح الهدى ، وأمّنَ المهالك والمطاوح ، وسهَّل المبارك والمماتح[٧] ، إلّا بعـد ان شَدَخَ يأفوخ الشِّرْك باذن الله ، وشَرَمَ[٨] وجه النِّفاق لوجه الله ، وجَدَع أنف الفتنة في جنب الله ، وتَفَلَ في عين[٩] الشيطان بعون الله[١٠] .

---

(١) سجرائه : اصفيائه .

(٢) إيالتها : سياسة امورها . وآل على القوم إيالة : ولى

(٣) عباهل مباهل : متفرقه ، من أجل وعبهل الراعي رعيته اذا تركها مهملة فهي عباهل مباهل .

(٤) الطلاحى : الإبل التي تشتكي بطونها من اكل الطَّلْح وهو شجر العضاه ، أراد القوم الذين لا راعي لهم يصدهم عما يضرّهم كالإبل التي تأكل الطَّلْح الذي يؤذيها فلا يردها أحد .

(٥) ظ : لا رائد ولا زائد ، ح : لا ذائد ولا رايد .

(٦) الصُّوَى : مفردها صوه وهي حجارة توضع على الطريق لهدى المارين .

(٧) الماتح : المكان الذي يستقى منه .

(٨) ظ : < وشوّص > .

(٩) ح : وجه .

(١٠) ظ ، ح : وصدع بملء فيه ويده بأمر الله .

وبعد فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك في دار واحدة ، وبقعة جامعة ، إن استقادوا[١] لك ، أو أشاروا إليّ[٢] فأنا[٣] واضعٌ يدي في يدك ، وصائرٌ الى رأيهم فيك ، وإنْ تكن الأخرى فادخل في صالح ما دخل فيه المسلمون ، وكن العونَ على مصالحهم ، والفاتحَ لمغالقهم ، والمرشدَ لضالّهم ، والرادعَ لغاويهم ، فقد أمر الله بالتعاون على البِرّ ، وأهاب الى التناصر على الحق . ودَعْنا نقضي هذه الحياة الدنيا بصدور بريئةٍ من الغل ، ونلقى الله عزّ وجلّ بقلوبٍ سليمةٍ من الضِّغْن . وبعدُ فالناس ثُمَامَةٌ[٤] فارفُق بهم ، واُحنُ عليهم ، ولِنْ لهم ، ولا تُشقِ نفسك بنا خاصةً فيهم ، واترك ناجم الحقد حصيدًا ، وطائر الشر واقعاً ، وباب الفتنة غَلقاً ، فلا قال ولا قيل ، ولا تبيع[٥] ، والله على ما نقول شهيد ، وبما نحن عليه بصير .

قال ابو عُبيدة : فلما تهيأتُ للنهوض قال لي عمر : كُنْ لدى الباب هنيئةَ فلي معك ذَرْءٌ[٦] من القول ، فوقفت ولا أدري ما كان بعدي إلّا أنه لحقني بوجه يَنْدى[٧] تهلّلا ، وقال لي : قُلْ لعليّ : الرُّقادُ مَحْلَمَة ، واللَّجاجُ مَلْحمة ، والهوى مَقْحَمة ، وما مِنّا أحد إلّا وله مَقام معلوم ،

(١) ظ : استقاموا ، ح : استفادوني .

(٢) ظ ، ح : وأشاروا عندي بك .

(٣) ظ < اول > .

(٤) الثمامة : نبات ضعيف .

(٥) ك ، ظ : نتبع . والتبيع : الناصر بدليل قوله تعالى : « ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً » الاسراء ١٧ – ٦٩

(٦) ظ : دوق ذرو . ح : روق . الذرء : الشيء اليسير .

(٧) ح : يبدي . ك < ويروي بشراً > .

وحقّ مُشاع أو مقسوم ، ونبــأ ظاهر أو مكتوم ، وإنّ أكيَسَ الـكَيْسِي[١] من مَنَحَ الشارد تألفاً ، وقرّب[٢] البعيد تلطُّفاً ، وَوَزَنَ كلّ امرئ بميزانه ، ولم يَخْلِط خبره بعيانه ، ولم يجعـل فِتْره مكان شِبْره ، ديناً كان أو دنيا ، ضلالاً كان أو هُدى . ولا خير في معرفةٍ مشوبة بنكرة ، ولا في علم مُعتَمل في جهل ، ولسنا كجلدة رُفْغ[٣] البعير بين العِجَان[٤] وبين الذَّنَب ، وكلُّ صالٍ فبناره ، وكلُّ سَيْلٍ فإلى قراره ، وما كان سكوت هذه العصابة الى هـذه الغاية لِعِيٍّ وَشِيٍّ[٥] ، ولا كلامُها اليوم لفَرَقٍ او رفق[٦] ، فقد جَدَعَ الله بمحمد صلّى الله عليه وسلّم أنفَ كلِّ ذي كِبْر ، وقَصَم[٧] ظهرَ كلِّ جبّار ، وقطع لسان كلِّ كذوب ، فماذا بعد الحق إلّا الضّلال . ما هـذه الخُنْزُوَانَةُ[٨] التي في فَراشِ[٩] رأسك ، وما هذا الشَّجا المعترض في مدارج انفاسك ، وما هذه الوَحَرَة[١٠] التي أكلت شراسيفك[١١] ،

(١) ظ : الناس ، ح : الكيس .

(٢) ظ ، ح : قارب .

(٣) ظ : رقع ، ح : عقر . الرّفغ : اصل الفخذ من باطن ، وارفاغ البدن : كل موضع اجتمع فيه الوسخ .

(٤) العجان : الاست . وذلك كناية عن الحقارة والمهانة .

(٥) ظ : ولي سروه لي ، ح : لي . العيّ : عدم القدرة على الكلام والشيّ اتباعًا للعي .

(٦) ظ : فتق او رتق ، ح : فرق أو رهق .

(٧) ظ : قصر ، ح : قصف .

(٨) الخنزوانة : الكبر .

(٩) الفراش : عظام دقاق تلي القحف .

(١٠) الوحرة : في الأصل وزغة اصغر من العضايه تلصق ، ويسمى الحقد وحرًا للصوقه بالقلب . وقيل : الوحرة دويبة تشبه الوزغة تقع في الطعام فيفسد .

(١١) الشراسيف : مفردها شرسف وشرسوف : وهي الطرف المشرف على البطن من الضلع .

والقذاة التي أعشت ناظرك؟ وما هذا الدَّحس[١] والدَّس اللذان يدلان على ضيق الباع، وخور الطباع؟ وما هذا الذي لبست بسببه جلدة النمر، واشتملت عليه بالشحناء والنكر، لشدّ ما استسعيت لها، وسريت سرى ابن أنقد[٢] إليها. إنَّ العوان لا تُعلَّمُ الخِمرة[٣]، والحَصان لا تكلم خبرة[٤]، وما أحوج الفرعاء[٥] الى فالٍ، وما افقر الصلعاء الى حالٍ، لقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والأمر معبَّد مخيَّس[٦]، ليس لأحد فيه ملمس ولا مأنس، ولم يُسِرّ فيك قولاً، ولم يستنزل فيك قرآناً، ولم يجزم في شأنك حكماً[٧]، ولسنا في كسرويّة كسرى، ولا في قيصرية قيصر، تأنك لأخدان فارس، وأبناء الأصفر، قوم جعلهم الله جزَرًا[٨] لسيوفنا، وجَرَرًا[٩] لرماحنا، ومُزَعاً لطعاننا[١٠]، وتبعاً لسلطاننا، بل نحن في نور نبوة، وضياء

---

(١) الدَّحس : التدسيس في الأمر يستبطنه ويطلبه، وتسمى دويبة دقيقة تدخل تحت التراب دحاسة وصبيان البادية يشدونها في الفخاخ يصيدون بها العصافير .

(٢) ابن أنقد : القنفذ . وفي القاموس : بات بليل أنقدَ لأنه لا ينام الليل كله .

(٣) العَوان : المرأة التي قد اسنت ولما تهرم، أي أنها لا تحتاج الى تعليم الاختمار، يضرب للرجل المجرَّب .

(٤) الحَصان : المرأة العفيفة . الخبرة : الاختبار .

(٥) الفرعاء : الطويلة الشعر .

(٦) في القاموس : المخيَّس : المذلَّل .

(٧) ك [ولم يجزم في شأنك حكماً] .

(٨) الجزر . كل شيء مباح للذبح .

(٩) ظ : خرزًا لسيوفنا، جرزًا لرماحنا . أي مطعونين بها يجرونها من قولهم أجر فلانًا اذا طعنه وترك الرمح فيه يجره .

(١٠) المُزَع : جمع مُزْعَة : القطعة من اللحم .

رسالة ، وثمرة حكمة ، وآثار[١] رحمة ، وعنوان نعمة ، وظلّ عِصْمة، بين أمة مهديّةٍ بالحق والصدق ، مأمونةٍ على الفَتْق والرَّتْق ، لهـا من الله قلب[٢] أبيّ ، وساعد قويّ ، ويد ناصرة ، وعين باصرة ، أتظنّ ظنًّا أن أبا بكر وثب على هذا الأمر[٣] مفتاتاً على هـذه الأمة ، خادعاً لهـا ، ومتسلّطاً عليها ؟ أتراه امتَلَخ[٤] أحلامها[٥]، وأزاغ[٦] أبصارها ، وحَلّ عقودها ، وأحال عقولها ، واستلّ من صدورهـا حميّتها ، وانتزع من أكبادها عصبيّتهـا ، وانتكث[٧] رشاءها ، وأنضبَ[٨] ماءها ، وأضلّها عن هداها ، وساقها الى رداها ، وجعل نهارَها ليلًا ، ووزنها كَيْلًا ، ويقظتها رُقادًا ، وصلاحها فسادًا ؟ إنْ كان هكذا إنّ سحره لمبين ، وإنّ كيده لمتين ، كلا والله باي خيـلٍ ورَجْل[٩] ، وبأي سِنان ونَصْل ، وبأي قوةٍ ومُنّة ، وبأي ذُخْرٍ وعُدّة ، وبأي أيدٍ وشدة ، وبأي عشيرة وأُسرة ، وبأي تَدْريج[١٠] وبَسْطة[١١]، لقد أصبح عندك بما وَسَمْتَهُ منيع الرتبة ، رفيع العتبـة ، لا والله !

(١) ظ : ثمرة ، ح : أثرة .
(٢) ك ، ظ : أب .
(٣) يعني الخلافة .
(٤) امتلخ : انتزع .
(٥) ح : اخلافها : جمع خلفة وهي الثمرة بعد الثمرة من كل شيء أي ثمرات عقولها .
(٦) أزاغ : أمال .
(٧) ظ : انكث .
(٨) ك : انتطب .
(٩) رَجْل : جمع راجل وهو الذي لا ظهر له فيركبه .
(١٠) ظ : درع ، ح : تذرع ؛ التدريج : من درج الثوب طواه ولفّه .
(١١) ظ : < وبأي قدرة ونشطة > .

ولكن سَلَا عنها ، فولهت له ، وتطامن لها فلصِقَتْ به ، ومال عنها فمالت إليه ، واستمر[١] دونها فاشتملت عليه ، حبوةً حباه الله بها ، وعاقبةً بلّغه الله إيّاها ، ونعمة سَرْبَلَهُ جمالها ، ويدًا أوجب عليه شكرَها ، وأمة نظر الله به لها ، وطالما حلقت فوقه في أيام رسول الله صلّى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت لِفْتها ، ولا يرتصد وقتها ، والله أعلم بخلقه ، وأرأف بعباده ، يختار ما كان لهم الخيره ، وانك بحيث لا يجهل موضعك من بيت النبوّة ، ومَعْدِن الرسالة ، وكَهْف الحكمة ، ولا يُجْحَدُ حقك فيما آتاك ربُّك ، ولكن لك مَن يزاحمك بمنكب اضخم من منكبك ، وقُرْبَى أَمَسّ من قُرْباك[٢] ، وسنّ أعلى من سنّك ، وشيبةٍ أروع من شيبتك ، وسادة لها عِرْق[٣] في الجاهلية وفرع[٤] في الاسلام[٥] ، ومواقف ليس لك فيها جَمَلٌ ولا ناقة ، ولا تُذْكر في مقدّمة منها ولا ساقة ، ولا تَضْرِب فيها بذراعٍ ولا إصْبع ، ولا تخرج منها بِهُبَع ولا رُبَع[٦] .

(١) ظ : واشتم ، ح : انشمر .
(٢) ظ : وقرب أمس من قربك .
(٣) ظ : عراقة .
(٤) ظ : قدم .
(٥) ظ < والشريعة > .
(٦) ظ ، ح : البازل وهو الجمل القوي في سنته التاسعة . الرُبَع : الصغير من اولاد الإبل الذي ينتج في الربيع . الهُبَع : الذي ينتج في آخر الشتاء فيكون ضعيفاً . ظ ، ح < فان عذرت نفسك فيما تعدر به تشقشقتك من ضاغيتك ، فاعـذرنا فيما تسمع منا في لين وسكون عما لا تبعده ولا تتلاطه عليه ، ولئن حزنت لهذا لينبجسنّ عليك ما ينسيك الأول ويلهيك عن الثاني ، ولولا علم من عرضنا به في انفسنا له ما سكنت ، ولا اتخذنه انت وليجةً الى بعض الأرب .

فأما ابو بكر الصدّيق فلم يزل حَبّة[1] قلب رسول الله ، وعلاقة همّه ، وعَيْبَة[2] سرّه ، ومثوى حُزنه[3] ، ومفزع رأيه ومشورته ، وراحة كفّه ، ومرمق طَرْفه ، وذلك كلّه بمحضر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار ، شهرته مغنية عن الدلالة عليه ، ولعمري إنّك اقرب الى رسول الله قرابةً ، لكنه اقربُ قُربةً[4] ، والقرابة لحم ودم ، والقُرْبة روح ونَفْس ، وهذا فَرْقٌ قد عرفه المسلمون ولذلك صار معه المؤمنون أجمعون[5] ، ومهما شككتَ فيه فلا تشُكَّ أن يد الله مع الجماعة ، ورضوانه لأهل الطاعة ، فأدخل فيما هو خيرٌ لك اليومَ ، وأنفعُ لك غدًا ، وألفِظ من فيك ما تعلّق بلَهاتك ، وأنفُث السخيمة من صدرك[6] فان يكن في الأمل طول ، وفي الأجل فُسْحة ، فستأكله مريئاً أو غير مريء ، وستشربه هنيئاً أو غير هنيء ، حين لا رادَّ لقولك إلّا من كان منك ، ولا تابع لك إلّا من كان طامعًا فيك ، يمضُّ إهابك ، ويفري أديمك[7] ، ويزري على هديك ، فهناك تقرع السِنَّ ، وتجرّع[8] الماء مضروجًا[9] بدم ، وحينئذٍ تأسى على ما

---

(١) ظ < سويداء > .

(٢) ح : غيبة . العيبة : موضع السر .

(٣) ك : حزبه .

(٤) القربة : المنزلة والدنو .

(٥) ظ ، ح : قد عرفه المؤمنون ولذلك صاروا اليه أجمعين .

(٦) ظ ، ح : والفظ سخيمة صدرك عن نفاثك .

(٧) ظ ، ح : قادمتك .

(٨) ك : تشرب .

(٩) ظ ، ح : ممزوجاً .

مضى من عمرك ، ودَرَج من قومك[1] ، فتود أن لو سُقيتَ بالكأس التي أَبيْتَها ، ورددت للحال التي استبريتَها[2] ، ولله تعالى فينا وفيك أمرٌ هو بالغُهُ ، وغَيْبٌ هو شاهده ، وعاقبةٌ هو المرجوّ لضرّائها وسرّائها،وهو الوليّ الحميد ، الغفور الودود ، قال أبو عُبَيْدَة : فمشيتُ متزمّلًا ، أتوجّأ[3] كأنما أَخطو على أم رأسي فَرَقاً من الفُرقة ، وشفقاً على الأمة ، حتى وصلت الى عليّ رضى الله عنه في خلاء ، فأَبثثْتُهُ الأمر[4] كلّه ، وبرئتُ اليه منه ، ورَفَقْتُ به ؛ فلمّا سمعها ووعاها ، وسَرَت في أوصاله حُميّاها قال : حلّت مُعْلَوِطّة ، وولّت مُخْرَوِطّة[5] ، حَلِ لا حليتِ[6] ، التَّعس أولى لها من أن أقولَ لَعا[7] :

إحدى لياليكِ فهيسي هِيسي لا تَنْعَمي الليلةَ بالتَّعريسِ[8]

(١) ظ : يومك .

(٢) ك : الى تلك التي استبريتها . استبريتها : تخليت عنها وطلبت البراءة منها .

(٣) ك ، ظ : اتوخى . (التوجؤ : التمارج .

(٤) ظ : فأنبأته ذلك كله ، ح : فأبثثته بثي كله .

(٥) المعلوطة : من الاعلواط وهو ركوب الرأس من غير روية ، والمعلوطة الناقة توسم في عنقها . المخروطة : الدابة الجموح المسرعة .

(٦) حلِ لا حليت : ان العرب اذا زجرت الإبل قالت : حَلِ حَلِ ، فاذا لم تزجر قالت لها : حلِ لا حليت أي لا أصبت خيرًا ، أو لا ظفرت بما أردت .

(٧) يقال للفرس الجواد والناقة النجيبة اذا عثر : تعساً لك ، ولغيرهما : لعًا لك . قال الأعشى :

بذات لوثٍ عفرْناةٍ اذا عثرت فالتعس أدنى لها من أن اقول لعا

وقال الأخطل :

فلا هدى الله قيْساً من ضلالتها ولا لعا لبني ذكوان ان عثروا

والمثل « لعًا له » يضرب للدعاء للعاثر بأن ينتعش اي سلمت ونجوت .

(٨) مثل يضرب لمن يقع في داهيةٍ وأمر عظيم يحتاج فيه إلى الجد والاجتهاد . الهيس : السير من أي ضربٍ كان .

نعم يا أبا عُبَيْدة ، أكل هذا في أنفس القوم يَحْتَبُونَ به ، ويطّجعون عليه[١] ؟ قال ابو عُبَيْدة : فقلت : لا جواب لك عندي ، إنما أنا قاضٍ حقَّ الدين وراتقٌ فَتْق الاسلام ، وسادٌّ ثُلْمَةَ الأمة ، يعلم الله ذلك من خلجات[٢] قلبي ، وقرارة نفسي ، فقال علي رضي الله عنه : والله ما كان قعودي في كِسْر هذا البيت قصدًا للخلاف[٣] ، ولا إنكارًا للمعروف ، ولا زرايةً على مسلم ، بل لما وَقَذَني[٤] به رسول الله صلى الله عليه وسلم بفراقه ، وأودعني من الحزن بفقده ، وذلك أني لم أشهد بعده مشهدًا إلّا جدّد لي حزناً ، وذكّرني شجناً ، وإنّ الشوق الى اللحاق به كافٍ عن الطمع في غيره ، فقد عكفتُ على عهد الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرّق منه رجاء ثوابٍ مُعَدٍّ لمن أخلص عمله ، وسلّم لعلمه ومشيئته أمره ، على أنّي ما علمت أن التظاهر عليّ واقع ، ولا عن الحق[٥] الذي سيق إليّ دافع[٦] ، وإذ قد أُفعِمَ الوادي بي ، وحُشِدَ النادي من اجلي ، فلا مرحباً بما ساء أحدًا من المسلمين[٧] ، وفي النفس حاجات[٨] لولا سابق قول ، وسالفُ عهد ، لشفيتُ غيظي بِخِنْصَري وبِنْصَري ، وخُضْتُ لُجَّتَهُ بأخمصي ومَفرِقي ، لكني

---

(١) ظ : يضطبعون ، ح : يجثونه ويصطنعون .

(٢) ظ : خلجان ، ح : جلحان .

(٣) ح : للخلافة .

(٤) وقذني : تركني عليلًا ، والموقوذ : المسترخي من ضرب او نعاس .

(٥) ظ ، ح : ولي عن الحق .

(٦) ح : رافع .

(٧) ظ : < وسرّني > .

(٨) ظ ، ح : كلام .

مُلْجَمٌ إلى أن ألقى ربّي ، وعنده أحتسب ما نزل بي ، وأنا غادٍ الى جماعتكم ، ومبايعٌ لصاحبكم ، وصابر على ما ساءني وسرّكم ، لِيَقْضِيَ الله أمراً كان مفعولاً ، وكان الله على كل شيء شهيداً .

قال ابو عُبَيْدة : فعدتُ الى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ؛ وقَصَصْتُ(١) القول على غَرّهِ(٢) ، ولم أختزل(٣) شيئاً من حُلوه ومُرّهِ ، وذكرتُ غدوَّه الى المسجد ، فلما كان صباحُ يومئذٍ وافى عليّ رضي الله عنه ، فخرق الجماعة الى أبي بكر رضي الله عنه فبايعه ، وقال خيراً ، ووصف جميلاً ، وجلس زِمِّيتاً(٤) ، واستأذنه للقيام ونهض فشيّعه عمر رضي الله عنه تكرمةً له ، واستبراءً(٥) لما عنده ، فقال له عليّ : ما قعدت عن صاحبكم زهداً(٦) فيه ، ولا أتيتُهُ فَرَقاً منه ، وما أقول ما أقول تَعِلّةً ، واني لأعرف مَسْمَى طَرْفي ، ومَخْطَى قدَمي ، ومَنْزِع قوسي ، وموقع سهمي ، ولكني قد أزَمْتُ(٧) على فأسي ، ثقةً بالله في الإدالة(٨) في الدنيا والآخرة . فقال له عمر : كَفْكِفْ غَرْبَك ، واستوقِفْ سِرْبَك ، ودعِ العصا بلحائها ، والدلوَ على رشائها ، فإنّا من

(١) ظ : واقتصصت ، ح : فنصصت .

(٢) على غرّه : على طيه الأول . الغر : الكسر المثني في جلد او ثوب ، يضرب مثلًا للأمر الذي لا يغير عما كان إليه .

(٣) ك : اعتزل .

(٤) ك [ ] ظ : قليلًا . الزمّيت : الوقور الساكن .

(٥) ظ : استبياناً .

(٦) ظ ، ح : كارهاً له

(٧) أزمت : أزم الفرس على فأس اللجام اذا عضّها وقبض عليها . وفأس اللجام : الحديدة المعترضة منه في الحنك ، يريد أنه كتم ما في نفسه .

(٨) ح : الابالة .

خلفها وورائها ، إنْ قَدَحنا أورَيْنا ، وإنْ مَتَحْنَا أروَيْنا ، وإنْ قَرَحْنا أدْمَيْنا ، وإنْ نَصَحنا أربينا ، ولقد سمعتُ أماثيلك التي لغوتَ[١] بها عن صدر أُكِلَ بالجوى ، ولو شئتُ لقلتُ على مقالتك ما اذا سمعته ندمت على ما قلتَه . زعمتَ أنّك قعدتَ في كسر بيتك لما وَقَذَكَ به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بفراقه ، أفرسول الله صلّى الله عليه وسلم وقَذَكَ وحدك ولم يَقِذ سواكَ ؟ بل مصابه اعظم واعزّ من ذلك ، وإنّ من حق مُصابه ألّا يصدعَ شَمْلَ الجماعة بكلمة لا عِصام لها، ولا يزري[٢] على اختيارها بما لا يؤمن[٣] كَيد الشيطان في عقباها .

هذه العرب حولَنَا ، والله لو تداعت علينا في مصبح يوم لم نلتق في ممساه ، وزعمتَ أن الشوق الى اللحاق به كافٍ عن الطمع في غيره ، فمن الشوق اليه نُصْرَةُ دينه ، وموآزرةُ اولياء الله تعالى ومعاونتهم فيه . وزعمتَ أنّك عكفت على عهد الله تجمع ما تبدّد منه ، فمن العكوف على عهده النصيحةُ لعباده ، والرأفةُ على خَلْقه ، وبذل ما يصلحون به ، ويَرْشُدون إليه . وزعمت أنّك لم تعلم أن التظاهر عليك واقع ، ولا لك عن الحق الذي سيقَ إليك دافع[٤] ، فأيّ تظاهر وقع عليك ، وأيّ حقٍ لُطّ[٥] دونك ، قد علمت ما قالت الأنصار لك سرًّا وجهرًا ، وما تقلّبت عليه بطناً وظهرًا ، فهل ذكرتْك او أشارت بك ، او وجدت رضاها عندك ؟

(١) ظ لنويت . لغوت : تكلمت .

(٢) ح : يزدري .

(٣) ح : لا بد من .

(٤) ك ، ح : <   > .

(٥) ظ ، ح : ليط ، لطّ : خفي واستتر

هؤلاء المهاجرون والأنصار من الذي قال بلسانه : إنّك تصلح لهذا الأمر ، أو أومأ بعينه ، او همهم[١] في نفسه ؟ أتظنّ ان الناس قد ضلّوا من أجلك ، أو عادوا كفارًا زهدًا فيك ، وباعوا الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وسلم تحاملًا[٢] عليك ؟ لا والله ! ولكنّك اعتزلت تنتظر الوحي ، وتتوكف[٣] مناجاة المَلَك ذلك أمر طواه الله عزّ وجلّ بعد محمد صلّى الله عليه وسلّم ، كأنّ الأمر معقود بأُنشُوطة[٤] ، أو مشدود بأطراف لِيطة[٥] كلّا والله ! إنّ الغاية لُمخلقة[٦] ، وإنّ الشجرة لمورقة ، ولا عجماء بعد حمد الله إلّا وقد أفصحت ؛ ولا عجفاء إلّا وقد سمنت ، ولا بلهاء إلّا وقد فطنت ، ولا شوكاء إلّا وقد نفحت[٧] .

ومن أعجب شأنك قولك : لولا سابقُ قولٍ ، وسالفُ عهد ، لَشَفَيْتُ غيظي ، وهل ترك الدين لأحدٍ من أهله أن يشفيَ غيظه بيده ولسانه ؟ تلك جاهليّة قد استأصل الله شأفَتَها ، ودفع عن الناس آفتها ، واقتلع جرثومتها ، وهوّر[٨] ليلها ، وغوّر سَيلها ، وأبدل منها الرَّوْح والرَّيحان ، والهدى والبرهان .

(١) الهمهمة : الكلام الخفي .

(٢) ح : تجاملًا .

(٣) ك < > توكف : انتظر .

(٤) أنشوطة : عقدة يسهل حلّها .

(٥) الليطة : قشر القصب .

(٦) ظ : لمحقة ، ح : لمحلقة .

(٧) ك : ولا شرداء إلّا وتنجت شوكاء : صفة لموصوف محذوف أي بقعة شوكاء ، يعني ذات شوك . نفحت : نفح الزهر عبق ريحه .

(٨) هوّر : أذهب .

وزعمت أنك مُلجَم ، فلعمري إنّ من اتقى الله عزّ وجلّ ، وآثر رضاه ، وطلب ما عنده ، أمسك لسانه ، واطبق فاه ، وجعل سعيه لما وراه.

قال عليّ رضي الله عنه : والله ما بذلت ما بذلت وأنا أريد نَكْثَه، ولا اقررتُ بما أقررت وأنا أبغي حِوَلًا عنه ، وإنّ أخسر الناس صفقةً عند الله من آثر النِفاق ، واحتضنَ الشّقاق ، وبالله سلوة[1] من كل كارث ، وعليه التوكل في كل الحوادث ، إرجع يا أبا حفصٍ الى مجلسك ناقعَ القلب، مبرودَ الغليل ، فسيحَ اللّبان[2]، فليس وراء ما سمعتَ وقلتُ إلّا ما يشدّ الأزر ، ويمنع الإِصر ، ويجمع الألفة ، ويرفع الكلفة ، ويوقع الزُلفة بمعونة الله عزّ وجلّ وحسن توفيقه.

قال أبو عُبَيْدة : وانصرف عمر ، وهذا أصعبُ ما مرّ بنا[3] بعد فراق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

(١) ظ : العوذ .
(٢) اللّبان : الصدر .
(٣) ظ ، ح : بناصيتي .

رسالة في علم الكتابة



رسالة في علم الكتابة

قال الشيخ ابو حَيّان عليّ بن محمد بن العبّاس التوحيدي الصُّوفي البَغْدادي رحمة الله عليه :

كنتُ – أَطال الله بقاءَك وأدامَ سرورَك – يوماً من الأَيام عند بعض الرؤساء، وجرى كلامٌ في نَعْت الخطّ وشرح اقسامه، وتفصيل فنونه، ووصفِ مذاهب أصحابه من أهـل العراق وغيرهم؛ وكان هذا الرئيس ذا خطٍّ مُعجز منه؛ وكان عديمَ المُساجل عليه؛ فانبريتُ بـكلامٍ كنت وَعَيْتُ جلّه من البربريّ أبي محمد[1]؛ المُحرّر عنـدنا ببغداد؛ وكان مبرّزًا في صناعته وارثاً لها من أبيه وعمّه – والعِرق اذا وشَجَ على شيء من الفضائل والرذائل اتى بالغرائب، وأوفى على العجائب – ووصلتُ ذلك بما كنت سمعتُه من الافاضل واصحاب الاقلام البارعة؛ وارباب الخطوط اليانعة مما التقطتْه أيدي الاقلام من ترتيب الحروف على احسن نظام من رقة اللطافة، ودقة الظرافة ممن تقدموا؛ وكانت العِبْرة في زمانهم بتعيين قواعد الخطّ الكوفي بأنواعه وهي اثنا عشرة قاعدة :

أَنواع الخطوط العربية : الاسماعيليّ؛ والمكّي، والمـدنيّ؛

(١) راجع الفهرست ١٣، إرشاد الأريب ٦ : ٥٩

والاندلسيّ ؛ والشاميّ ؛ والعراقيّ ؛ والعباسيّ ؛ والبغداديّ ، والمشعَّب ؛ والرَّيحاني ؛ والمجرّد ، والمِصْري ؛ فهذه هي الخطوط العربية التي كان منها ما هو مستعمل قديماً ؛ ومنها قريبة الحدوث ؛ وأما هذه الطرائق المستنبطَة فهي مرويّة عن الصحابة حتى اتصلت بابن مُقْلة[1] وياقوت وغيرهم وهم تفننوا فيها بحسب اجتهادهم .

وكنت ــ أطال الله بقاءك ــ في مجلس ابن البربري وقد حَفَل بأرباب الاقلام والخطوط وصار كلٌّ منهم يُظْهر مخبآته من النوادر .

أنواعُ الاقلام : فقال احدهم : خير الاقلام ما استمكن نُضجه في جرمه ؛ وجفّ ماؤه في قِشره ؛ وقطع بعد إلقاء بزره ؛ وصَلُبَ شحمُه ؛ وثَقُل حجمه .

وقال آخر : ان القلم المحرّف يكون الخط به أضعف وأحلى ؛ والمستوى أقوى وأصفى ؛ والمتوسط بينهما يجمع احد حاليها ؛ وما كان في رأسه طول فهو يعين اليد الخفيفة على سرعة الكتابة ؛ وما قصر فبخلافه .

أَنواع البَرْي : وقال آخر : البَرْي على اربعة أقسام :

الفَتْح : وهو في القلم الصلب أكثر تقعيراً ؛ والرخو أقل والمعتدل بينهما ، والنحت نوعان : نحت حواشيه ، ونحت بطنه ؛ اما حواشيه فيكون مستوياً من جهة السِنَّين معاً ولا يحيف على أحد الشقين فتضعف سنه ؛ وتكون شحمة القلم في بطنه متساوياً ، وأن يكون

(١) راجع ترجمة أبي علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلة في وفيات الاعيان ٢ : ٦١

الشق متوسطاً لجلفة[1] القلم دقّ او غلظ . وأما الشق فباعتبار الاقلام ان كان صلباً ؛ فيشق اكثر الجلفة ؛ وان كان رخواً يكون مقدار ثلث الجلفة ؛ وان كان معتدلاً يتوسط .

وأما القط فأنواع : محرّف ؛ ومستوٍ ؛ وقائم ؛ ومصوّب وأجودها : المحرّف المعتدل ؛ ومنهم من يجنح الى تدوير القطة ويمدّها؛ ويرغب فيها ؛ وأعني بالمدوّرة ان لا تظهر لها تحريفاً ؛ وأن يكون وضع يدك بالسكين على الاستواء لا يميل الى جهة بشيء البتة ؛ والقائم أن يكون استواء القشرة والشحمة معاً ؛ والمصوب بالنسبة الى الشحمة او القشرة غير محمود .

وقال المدقّق الفاضل الوزير الكاتب أبو علي بن مُقْلة في وصف القلم : أطل الجلفة ، وحسّنها ، وحرّف القطة وأيمنها ، والقطُّ هو الخطُّ .

معاني الخط : والكاتب يحتاج الى سبعة معانٍ : الخط المجرّد بالتحقيق ، والمحلّى بالتحديق ، والمجمّل بالتحويق ، والمزيّن بالتخريق ، والمحسّن بالتشقيق ، والمُجاد بالتدقيق ، والمميّز بالتفريق . فهذه اصوله وقواعده المتضمّنة لفنونه وفروعه ، وكل قلم يظهر له العمل على قدره — والورد كفاء صدره ان شاء الله .

أما المجرّد بالتحقيق فإبانة الحروف كلها منثورها ومنظومها ، مفصّلها وموصلها ، بمداتها وقصراتها ، وتفريجاتها وتعريجاتها ، حتى تراها كأنها تبتسم عن ثغور مفلّجة ، او تضحك عن رياض مدبّجة .

---

(١) الجلفة من القلم : من مبراه الى رأسه او مكان بريه .

فهذا ما يعمّ الحروف كلها عمّاً ، فأما ما يختص واحدًا واحدًا منها فسأقوله على اثر هذا .

وأما المراد بالتحديق فاقامة الحاء والخاء والجيم وما أشبهها على تبييض اوساطها ، محفوظة عليها من تحتها وفوقها واطرافها كانت مخلوطة بغيرها او بارزة عنها حتى تكون كالاحداق المفتّحة .

وأما المراد بالتحويق فادارة الواوات والفاءات والقافات وما اشبهها مصدّرة وموسطة ومذنّبة بما يكسبها حلاوة ويزيدها طلاوة .

وأما المراد بالتخريق فتفتيح وجوه الهاء والعين والغين وما اشبهها كيف ما وقعت افرادًا وازواجاً بما يدل الحس الضعيف على اتضاحها وانفتاحها .

وأما المراد بالتعريق فابراز النون والياء وما اشبهها ، مما يقع في اعجاز الكلمة مثل من وعن وفي ومتى والى وعلى بما يكون كالمنسوج على منوال واحد .

وأما المراد بالتشقيق فتكثّف الصاد والضاد والكاف والطاء والظاء وما اشبه ذلك مما يحفظ عليها التناسب والتساوي ، فان الشّكل بهما يصح ومعهما يحلو ، والخط في الجملة كما قيل : هندسة روحانية بآلة جسمانية .

وأما المراد بالتنسيق فتعميم الحروف كلها مفصولها وموصولها بالتصفية ، وحياطتها من التفاوت في التأدية ، ونفض العناية عليها بالتسوية .

وأما المراد بالتوفيق فحفظ الاستقامة في السطور من اوائلها

وأواسطها وأواخرها وأسافلها وأعاليها بما يفيدها وفاقاً لا خلافاً .

وأما المراد بالتدقيق فتحديد اذناب الحروف بارسال اليد ، واعتمال سن القلم ، وادارته ، مرة بصدره ، ومرة بسنّيه ، ومرة بالاتّكاء ، ومرة بالارخاء ، بما يضيف اليها بهجةً ونوراً ورونقاً وشذوراً .

وأما المراد بالتفريق فحفظ الحروف من مزاحمة بعضها لبعض ، وملابسة اول منها لآخر ليكون كل حرف منها مفارقاً لصاحبه بالبدن مجامعاً بالشكل الأحسن .

فهذه جملة كافية متى كان طبع الكاتب مؤاتياً ، وفعله مواطئاً ، وقريحته عذبة ، وطينته وطئة .

اقوال في الخطوط : وسمعتُ الأعسر الخطّاط أبا الحسن يقول : الخط اربعة اقسام : فالأول هو المحقّق بالقلم الغليظ ، والوسط ، والدقيق محرفاً او مقوماً ، ثم الشبيه به فيها قال : فاجتهد ان لا يكون الغليظ من الاقلام جافياً ، ولا الوسط منها منافياً ، ولا الدقيق منها ضعيفاً .

وقال المدرّس بباب الطاق يوماً لابن الخلّال[1] الورّاق يوماً : يا هذا اذا حرّفت القلم فلا تثقل عليه يدك ، واذا قوّمته فلا تخففها عنه ، وعيب خطك مع حلاوته ان شحمة قلمك زائدة على الحاجة ، ولك فيه خطرفة تدل على قلة المبالاة فلا تفعل فان سطراً من التحسين أنفع لك ، وانفق عليك من عشر ورقات في التشمير .

(١) هو أبو الحسن علي بن محمد الخلّال « صاحب الخط المليح والضبط الصحيح معروف بذلك مشهور » توفي سنة ٣٨١ هـ. ارشاد الأريب ١٤ : ٢٤٥ ، وهناك رجل آخر معاصر للتوحيدي يعرف بابن الخلّال وهو محمد بن أحمد الخلّال عرف بجودة الخط ايضاً .

وسمعته يقول يوماً آخر : الخط بالحبر في الجملة مفسدة .

وسمعت ابن سُورين[1] الكاتب يقول : الناس يظنون ان إدمان المشق مجوِّد للخط، فلم أجدْ هذا الحكم منتظماً بالصواب، ولا مطمئناً الى الحق ، ولا ملقياً بالقبول لأن الإدمـان للمَشْق موالاة الحركة بالحركة مع تفاوت النسب ، وذلك مجلبة للشَعَث ، لأنه يصدر عن كلالة اليد ، وربما اورث القلم طغياناً او احدث في الأداة عصياناً .

وسمعتُ عليَّ بن جعفر[2] الكاتب للطـائع ، وكان حسن الخط يغلب عليه التدوير يقول : لا شيء انفع للخطاط من ان لا يباشر شيئاً بيده في رفع ووضع خاصة اذا كان ذلك الشيء ثقيلاً ، فان الحركات اذا تمثلت بالحروف ، والحروف اذا اندفنت بالحركات كانت الصور الخطية والحروف الشكلية محفوظةَ الاعيان بامتلائها بها ، محروسةَ الابدان بانتسابها اليها . قال : ولقد رفعت يدي بسوطي الى الدابة مراراً في بعض الأيام وقنّعتها به فتغير خطي مدة .

فحكيت ذلك لأبي سليمان فقال : لله دره ! لكأنّما اشتق هـذا الوصف من الموسيقار لأنه يزن الحركات المختلفة في الموسيقى فتارةً يخلط الثقيلة بالخفيفة ، وتارةً يجرّد الخفيفـة من الثقيلة ، وتارة يرفع احداهما على صاحبتها بزيادة نقرة او نقصان نقرة ، ويمر في اثناء الصناعة بالطف ما يجد من الحسّ في الحِسّ ، ولطيف الحس متصـل بالنفس اللطيفة ، كما ان كثيف النفس متصل بكثيف الحِسّ . وكان كلامه أبلغ من هذا ولكنْ له موضع هو أولى به .

(١) ذكره التوحيدي في الإمتاع ٣ : ٢١٢

(٢) ذكره التوحيدي في الإمتاع ١ : ٦٢

وسمعت أبا اسحاق الصابي[١] يقول: ما حررت كتاباً قط عقيب التسويد الّا ورأيت التنافر في خطّي ؛ والتطاير من قلمي ، والتثاقل في يدي[٢] ؛ فاما اذا جممت بعده جمّة ، او نمت بعده نومة فأنا على صواب ما أريد منه جري ، ومن الخطأ فيه بري .

وسمعت ابن الزُّهري[٣] يقول:وكان لحق ابن مُقلة وابن الزنجي[٤] وبني الثوابة[٥] : من حقق الحروف المفصّلة تحقيقاً ثم وصل الاثنين بالثالث ثم وصل الثلاثة بالرابع على هـذا الى آخر متصل بالكلمة كقولهم : فسيكفيكهم ، ويستنصرون ، والاستعلام والاستفهام ، والاستقامة ، والاستنامة ، وخجخج ، وججججبا ، والاستنجاح ، والجحاجحة ، والصيادنة ، والصياقلة ، والصقالبة ، والغطارفة ، والطراخنة ، والبطارقة ، ووقف على المتماثلين مثل ، حططت وخططت ، وقططت ، ونصص ، وحصص ، وقصص ، واستنصح ، واستصحب ، وتكوكب ، واستنجح ، واستصلح ، واستقبح ، واستشرح ، وما اشبه هذا فانه كثير ، رجوتَ له ان يبلغ من رسم الخط الذروة العالية . قال : وملاك الأمر تقويم اعجاز السطور ، وتسوية هوادي الحروف ، وحفظ التنسيق وقلة العجلة واظهار القُدرة في عرض الاسترسال ، وارسال اليد في طيّ الاقتدار .

---

(١) راجع ترجمته في إرشاد الأريب ٢ : ٢٠ ، وفيات الاعيان ١ :١٢

(٢) وهذا ما يسمى بتشنّج الكتّاب Crampes d'écrivains

(٣) ذكره التوحيدي في الإمتاع ٣:٢١٣

(٤) هو ابو عبدالله محمد بن اسماعيل بن زنجي «كان يوصف بحسن الخط» الفهرست ١٩٠

(٥) راجع تراجم بني ثوابة في إرشاد الأريب ٤:١٤٤ ، ٧ : ١٨٦ ، الفهرست ١٨٧

وسمعت المسجديّ يقول : للخط ديباجة فتساويه ؛ وأما وشيه فشكله ؛ وأما التماعه فمشاكلة بياضه لسواده بالتقدير ؛ وأما حلاوته فافتراقه في اجتماعِهِ .

وسمعت ابن المرزُبان[1] الكاتب البليغ يقول : الخط هندسة صعبة ؛ وصناعة شاقة ؛ لأنه إنْ كان حلواً كان ضعيفاً ؛ وإنْ كان متيناً كان مفسولاً ؛ وإنْ كان جليلاً كان جافياً ؛ وان كان دقيقاً كان منتشراً ؛ وان كان مدوراً كان غليظاً ؛ فليس يصح له شكل جامع لصفاته الكبر والصغر الّا في الشاذ المستندر .

وسمعتُ ابن المشرّف البغدادي يقول : رأيت خط احمد بن أبي خالد كاتب المأمون وكان ملك الروم يُخرجه في يوم عيده في جملة زينته ؛ ويعرضه على العيون فقال : وكانت ألفاته ولاماته على غاية الانتصاب والتقوّم ؛ ولم أجد في جميع حروف خطه عيباً الا في الواوات الموصولة ؛ والياءات المفصولة . قال : ورأيتُ خط ابراهيم ابن العبّاس ؛ وكان ضعيفاً جدًا ؛ ولكنه كان شديدَ الحلاوة قهّاراً للعيون . قال : ورأيت خط ذي الرياستين وكان نهاية ؛ لكنه كان لا يكتب بالقلم الاوسط ولا الدقيق . قال : وليس لاهل المشرق ولا لأهل المغرب خط موصوف .

قال لنا ابو عبدالله بن الزّنجي الكاتب ورأيته بآذربيجان يكتب

(١) هو ابو عبدالله محمد بن عمران المرزباني (٢٩٧–٣٧٨ ﻫ) كاتب مشهور معاصر للتوحيدي إرشاد الأريب ١٨ : ٢٦٨ ؛ الفهرست ١٩٠ . وهناك رجل يعرف بابن المرزبان وهو ابو عبدالله محمد بن خلف ابن المرزبان الفهرست ٢١٢

لابراهيم بن المَرْزُبان السلّار يقول : اصلح الخطوط وأجمعها لأكثر الشروط ما عليه اصحابنا بالعراق فقلت : ما تقول في خط ابن مُقْلة ؟ قال : ذاك نبيّ فيه أفرغ الخط في يده كما أوحي الى النحل في تسديس بيوته .

وقلت لأبي الجمل[1] وكتب لشاشنيكير نصر الدولة : بأي شيء تفرق بين خط اهل العراق ؟ قال بما لا يخفى على ذي حسّ ؛ ولا يحتاج فيه الى شك وحَدس ؛ خط اصحابنا سفر ناضر ؛ وخط اهل الجبل كمد ؛ جاف ؛ عليه نبوّ . واذا اتفق فيه قويم كان كالخطأ في طي الصواب ثم لا يكون ذلك رونق لتأهب الحروف الباقية ؛ وكل شيء مستغرق في اشياء فلا بهجة له .

وسمعت ابو تمام الزّينبي[2] وكان حسن الخط ؛ بديع البلاغة يقول : وقيل قبل له : أنّى لك هذا الخط وهذه البلاغة ؟ قال : أما الخطُّ فاني تقيّلت فيه ابن مُقْلة أبا علي وان كنت بعيدًا من شأوه ؛ غير شاقّ لغباره . وأما البلاغة فالعرق الهاشمي انجب والاقتداء ببني ثوابة أفيَد .

وان ذهبتُ أحكي جميعَ ما وعيتُ من سادة هذا الشأن؛ وكبراء هذه الصناعة طال وكَثُر ؛ وأروى لك في هذا الجزء فقرًا للحكماء والعلماء تتصل بوصف الخط ؛ وتفيد دربة لطالبه حتى تصير محذرًا به على التنافس فيه ؛ واقتباس الخط الاوفى بحوله وقوته والمدار على الطبع المنقاد ؛ والارادة القوية ؛ والتأييد السابق .

---

(١) ذكره التوحيدي في الإمتاع ١ : ٦٦ ، وفي الصداقة والصديق ٣٢

(٢) ذكره التوحيدي في الإمتاع ٣ : ٢١٣

قال بعض السلف : الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً .

وقال قتادة في قوله جل ثناءه :« يزيد في الخلق ما يشاء » قال : الخط الحسن .

وروى عن وهب قال : إنّ رجلاً كتب بسم الله الرحمن الرحيم فأحسن تمطيطه وتخطيطه فغفر الله له .

وقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه : شرّ القراءة الهَذْرَمَة[1] ، وشر الكتابة المَشْق[2] .

وقال عمر : احسن الخط أبْيَنه ، وأبين الخط احسنه .

وقال عبّاس : الخط لسان اليد ، والبلاغة لسان العقل ، والعقل لسان المحاسن ، والمحاسن كمال الانسان .

وقال الحكيم الاول : القلم احد اللسانين كما قيل : قلة العيال احد اليسارَيْن .

وقيل لنصر بن سيّار :فلان لا يخط . قال: تلك الزَّمانة[3] الخفية.

وقال ابن الزيّات الوزير : بالقلم تزفّ بنات العقول الى خدور الكتب .

وقال ابن التوأم : خط القلم يقرأ بكل مكان وفي كل زمان ، ويترجم بكل لسان ، ولفظ اللسان لا يجاوز الآذان ولا يعم الناس بالبيان ، ولولا الكتاب لاختلفت اخبار الماضين ، وانقطعت انباء

(١) الهذرمة : سرعة الكلام والقراءة .

(٢) المَشْق : في الكتابة مدُّ حروفها .

(٣) الزَّمَانة : العاهة .

الغابرين ، وانما اللسان للشاهد لك ، والقلم للغائب عنك ، وللماضي والغابر بعدك ، فصار نفعه اعم ، والدواوين اليه افقر والملك المقيم بواسطة بلاده لا يدرك مصالح اطرافه وسدّ ثغوره وتقويم مملكته الا بالكتاب ، ولولا الكتاب لما استقر التدبير ولا استقامت الامور .

وقال اسماعيل بن صبيح الثقفي : عقول الرجال تحت اسنان اقلامها .

وقال علي بن عبيدة : القلم أصم ولكنه يسمع النجوى ، وأبكم ولكنه يفصح عن الفحوى ، وهو أعيا من باقل ، ولكنه افصح وأبلغ من سحبان وائل يترجم عن الشاهد ويخبر عن الغائب .

وقال احمد بن يوسف كاتب المأمون : ما عبرات الغواني في خدودهن بأحسن من عبرات الاقلام في بطون الكتب .

وقال جعفر بن يحيي : الخط سمط الحكمة ؛ به تفصّل شذورها ، وينظم منثورها ، ويؤلف بددها ، ويكتنف مددها .

وقال النمري : الاقلام مطايا الفِطَن ، وبرد القرائح ، وطلائع الالباب .

وقال جبل بن يزيد : القلم لسان البصير يناجيه بما استتر من الاسماع ؛ ويناغيه بما استثار من الطباع ؛ ويحدثه بما حدث وان كان في البقاع .

وقال عبد الحميد بن يحيي كاتب مروان : القلم شجر ثمرته اللفظ ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة ، والبلاغة منهل فيه ريّ العقول الظامئة ؛ والخط حديقة زهرتها الفوائد البالغة .

وقال ابن المقفَّع : القلم بريد العلم يخبّ بالخير ؛ ويجلي مستور النظر ؛ ويشحذ كليل الفكر ؛ ويجتنى من مشقه ثمرةُ الغير والعبر .

وقال ابو دُلَف العِجلي : القلم صائغ الكلام ؛ يفرغ ما يجمعه القلب ويصوغ ما يسبكه اللب .

وقال هشام بن الحكم : الخط حلى تصوغه اليد من تبر العقل ؛ وقصب يحوكه القلم بسلك الحذق .

وقال فيلسوف يونان : بنور الخط تبصر الحكمة ؛ وبرفق القلم تصوّر السياسة .

وقال ثمامة : ما اثرته الاقلام لم تطمع في دروسه الأيام .

وقال هشام بن عبد الملك : الخط صورة ضئيلة لكن لها معان جلَيلة ؛ وشبح حقير لكن له شأن كبير .

وقال صاحب الطاق : رب خط جاف عن العيون قد ملأ اقطار الظنون .

وقال هاشم بن سالم : صورة المداد في الابصار سوداء ؛ ولكنها في البصائر بيضاء .

وقال بشر بن المعتمر : القلب معدن ؛ والعقل جوهر ؛ واللسان مستنبط ؛ والقلم صائغ ؛ والخط صيغة .

وقال سهل بن هرون : القلم انف الضمير اذا رَعفَ[1] اعلن اسراره ؛ وأبان آثاره وأشاع أخباره .

---

(١) رعف : خرج من انفه الدم

وقال اعرابي ونظر الى احمد بن أبي خالد وهو يكتب : الدواة منهل ، والقلم وارد ، والكتاب عَطَن .

وقال المأمون : الخط روضة العلم ؛ وقلب الفهم ؛ وفن الحكمة ؛ وديباجة البيان .

وقال ابراهيم بن جَبَلة : مرّ بي عبد الحميد الكاتب وأنا اخطّ خطاً رديئاً فقال : أتحب أن يجود خطك ؟ قلت : نعم . قال : قلمك اطل جِلفته ، وأعد قطته . ففعلت فجاد خطّي .

ونظر جعفر بن يحيي الى خط حسن فقال : لم أرَ باكياً احسن تبسماً من القلم .

ونظر المأمون الى موآمرة بخط حسن فقال : لله درّ القلم كيف يحوك وشي المملكة ؛ ويطرّز اطراف الدولة ، ويقيم اعلام الخلافة .

ودخل كاتب لعمرو بن العاص على عمر فقال له : ألست ابن القين بمكة ؟ قال : بلى . قال له عمر : لا يلبث القلم ان يبلغ بصاحبه .

وكان الرشيد معجباً بخط اسماعيل بن صبيح فقال لأعرابي : صف لي اسماعيل في كتابته فقال : ما رأيت أطيش من قلمه ، ولا اثبت من حكمه . فقال : أحسنت يا اعرابي وأمر له بمال .

وقال الفضل بن يحيي : رداءة الخط احدى الفدامتين ؛ كما قالوا: حسن الخط احدى البلاغتين .

ونظر عبدالله بن طاهر الى خط كاتب فلم يرضه قال : نحّوا هذا عن مرتبة الديوان فانه عليل الخط ولا يؤمن ان يُعْدِيَ غيره .

ورفع معبد بن فلان رقعة الى عبد الله بن طاهر بخط قبيح فوقع فيها : اردنا قبول عذرك فأقطعنا دونه ما قابلنا من قبح خطك ؛ ولو كنت صادقاً في اعتذارك لساعدتك حركة يدك ؛ أو ما علمت ان حسن الخط يناضل عن صاحبه ، ويوضّح الحجة ، ويمكّنه من درك البغية .

وتخاير غلامان في خطهما الى سهل بن هرون فقال لاحدهما : أما انت فخطك تبر مسبوك ؛ وقال للآخر : أما انت فخطك وشي محوك ؛ تكافأتما الى نهاية وتوافيتما على غاية .

وقال اقليدس : الخط هندسة روحانية ظهرت بآلة جسدية .

وقال اوميرس : الخط وشي أظهره العقل بواسطة الحس في القلم ؛ فلما قابل النفس عشقته بالعنصر الأول .

وقال أفلاطون : القلم عُقال العقول ؛ والخط بسط الحس والمدرك به مراد النفس .

وقال مودوطيس : القلم قيم الحكمة والخط مخدوم القلم ؛ والمعنى جود العقل والبلاغة زينة الجملة .

وقال جالينوس : القلم طبيب الخط ؛ والخط مدبّر النفس ؛ والمعنى عين الصحة .

وقال بليناس : القلم الطلّسم الاكبر ؛ والخط نتيجته .

وقال ارسطاليس : القلم العلة الفاعلة ؛ والمداد العلة العنصرية ؛ والخط العلة الصورية ؛ والبلاغة العلة التامية .

وقال ملك يونان : امر الدنيا تحت شيئين ، احدهما تحت الآخر السيف والقلم ؛ والسيف تحت القلم .

وقال الاسكندر : لولا القلم ما استقامت المملكة ؛ وكل شيء تحت العقـل واللسان لأنهما الحاكمان على كل شيء ؛ والقلم يُريكهما شكلين ، ويُشهد كهما صورتين .

وزعم المنجمون ان القلم نفّاع في حساب الجمل .

وقال يحيي بن خالد : الخط صورة ؛ فروحها البيان ؛ ويدهـا السرعة ؛ وقدمها التسوية ؛ وجارحتها معرفة الوصل .

وقيل لأعرابي : كيف ترى ابراهيم بن العبـاس في كتابته ؟ قال : يثجثج اللؤلؤ المنثور منطقه في الخطب ؛ وينظم الدر بالاقلام في الكتب .

وقال ابراهيم بن العباس لغلام بين يديه : ليكن قلمك صلباً بين الدقة والغلظ ؛ ولا تبْرِهِ عند عقدة فان فيه تعقيـد الامور ؛ ولا تكتب بقلم ملتوٍ ، ولا ذي شق غير مستوٍ ؛ فان اعوزك الفـارسي والبحري واضطررت الى الاقلام النبطية ؛ فاختر منها ما يضرب الى السمرة ؛ واجعل سكّينك احدّ من الموسى ؛ ولا تبرِ بـه غير القلم ؛ وتعهده بالاصلاح ؛ وليكن مقطُّـك اصلب الخشب لتخرج القطّة مستوية ؛ وأبْرِ قلمك الى الاستواء لاشبـاع الحروف ؛ واذا اجللت فالى التحريف واجودُ الخط ابينُه ؛ واجود القراءة أبيَنُها .

وكان الحسن بن وهب يقول : يحتاج الكاتب الى خلالٍ ، منها : تجويد بري القلم واطالة جِلفَته ، وتحريف قطّته وحسن التأني لامتطاء

الانامل وارسال المدّة بقدر اشباع الحروف ، والتحرّز عند افراغها من التطليس ، وترك الشكل على الخطأ والإعجام على التصحيف ، وتسوية الرسم ، والعلم بالفصل وإصابة المقطع .

وقال سعيد بن حميد الكاتب: من أدب الكاتب ان يأخذ القلم في اصلح اجزائه وأبعد ما يمكن من موضع المداد فيه؛ ويعطيه من ارض القرطاس خطه ؛ ولا يكتب بالطرف الناقص من سنّه ؛ ويضعه على عيار قسطه؛ ويصوره باحسن مقاديره حتى لا يقع التمنّي لما دونه ؛ ولا يخطر بالبال شأو ما فوقه؛ ويعدله في شطره؛ ويشبهه مما يأتي من شكله؛ ويقرن الحرف بالحرف على قياس ما مضى من شرطه في تقريب مساحته؛ وتبعيد مسافته؛ ولا يقطع الكلمة بحرف يفرده في غير سطره ويسوّي اضلاع خطوط كتابه ؛ ولا يحلّيه بما ليس من زيّه ؛ ولا يمنعه ما هو له بحقه ، فتختلف حليته وتفسد قسمته .

وقال سلم الحرّاني : عطّروا دفاتر آدابكم بسواد الحبر .

ونظر العتّابي الى ورّاق يخط فلم يرتضِ خطه فقال له : اغتفر رداءة خطك بسواد حبرك ، فان شدة القبح اولى بشدة السواد .

وقال المأمون : كواكب الحكم في ظلم المداد .

وقال المنصور : ان هذه الحكم تندّ ، فاجعلوا الكتب لها حُماة ، والاعلام عليها دعاة .

وقال ابن التوّام : شكلوا قرائن الآداب لا تنفر عن الصواب .

ورفع رجل قصة الى عبد الله بن طاهر فوقع على ظهرها : ما احسن ما كتب لولا انه اكثر شونيزه .

وقال ابن ثوابة : اعجام الكتاب يمنع من استعجامه.

وقال علي بن عيسى الوزير على ما حدثنا بهِ ابنه عيسى : الخطوط المعجمة كالبرود المعلمة .

ورفع رجل الى عبد الله بن طاهر قصة قد اكثر ترابها فوقع فيها: ان ضمن لنا من الصابون ما نغسل به ثيابنا من تراب قصته قضينا حاجته .

وقال ابو ايوب الموورياني : حلّوا عواطل العلم بالتقييد؛ وحصّنوها من شبه التحريف .

وقال ابراهيم بن العباس : القلم ينطق عن الساكت ؛ ويخبر عن الباهت ؛ ويترجم عن القلوب ؛ ويطّلع على الغيوب ؛ ويشافه على بعد الدار ؛ وتناءى المزار ؛ لا تنقطع اخباره ؛ ولا تدرس آثاره ؛ ناطق ، ساكت ، مقيم ، مسافر ، شاهد ، غائب ، ناء ، حاضر ، ان استُنهض بادر ، وان وعى أحضر ، كتوم السر ، مأمون الشر .

وقال محمد بن عبد الملك الوزير : الكتاب المعجم هو العربي ، وغير المعجم هو النَبَطي .

وقال سعيد بن حميد : من سلك طريقاً بلا اعلام ضلّ ، ومن قرأ خطّاً بلا اعجام زلّ .

وقال عبد الحميد : الأرض الملساء وحشة ؛ والروضة الزهراء بهجة ، فاذا نوّرت فقد انتهى حسنها ، وكذلك الخط بلا نقط ولا اعجام كالأرض الملساء والمنقوط المعجم كالروضة المنوّرة .

وقال ابن ثوابة : الشكل للكتاب كالشكل للدواب .

وقال سهل بن هرون : سوء الخط زَمَانَةُ الأديب، وقبح العبارة وصمة على اللبيب .

ونظر الحسن بن وهب الى خط كاتب فقال : هذا متنزّه اللحظ الغنج ، ومُجتنى اللفظ البهج .

وقال عُبيد الله بن أبي رافع : كنت أكتب لعلي بن أبي طالب كرّم الله تعالى وجهه فقال لي : يا عبيد الله ! ألق دواتك ، وأطل سنّ قلمك ، وفرّج بين سطورك ، وقرمط حروفك ، والزم الاستواء .

وقال ابو سليم : كنت أكتب المصاحف فمرّ بي علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: اجلل قلمك ، فقصمت منه قصمةً ثم كتبت فقال : نعم هكذا ، نوّره كما نوّره الله .

وقال ابن سيرين : كان يكره ان يكتب القرآن مشقاً لأن في ذلك تعجرفًا وخرقاً .

وقرأ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه من خط كاتب لأبي موسى الأشعري لحناً فكتب اليه : قد أرسلت لك سوطاً وقال بل في حقه اليك ، فكتب له الله محذوفاً ، فكتب اليه انا انت اضرب كاتبه سوطاً .

وقال ابراهيم (   ) : من وهب له العقل في نفسهِ،والبلاغة في لسانه ، والخط في يده ، والسمت في هيأته ، والحلاوة في شمائله، فقد نظمت له المحاسن نظماً،ونثرت عليه الفضائل نثرا،وبقي عليه الشكر وأنى له ذلك .

وقال عبيد الله بن الحسن العنبري : مـا قرأت كتاباً بليغاً إلا واعشب فوآدي سرورًا ، ولا رأيت خطاً حسناً الا وامتلأت عيني قرورًا .

ونظر المتوكل الى خط احمد بن الخطيب فرآه رديئاً فقال : مـا اقدر الله ما يشاء : لقد جمع هذا الرجل فرق الخزى في جلدته : خبث الطبع ، وسفه اللسان ، وفساد العقيدة ، وسوء المعاملة ، وقبح الوجه ، ورداءة الخط ، اني اظن ان جليسه معه في بلوى ويخوف عليه العدوى .

ورأيتُ أبا الوفاء المُهندس يقول لابن سَعْدَان : والله أيهـا الوزير ان خطك في الغَاية ، وان بلاغتك في النهايـة ، فما الذي يدعو الى الاستعانة بالصابيء ابي اسحق في مكاتبة ابن عبّاد ؟ فقال : ان ابن عبّاد كثير التتبع للعيب ، شديـد الشماتة بالعاثر ، وأنا اكره ان يرميني فيصمي ولا يشوي ، ولأن احصّن عقلي وعرضي بترك اعتمال خطي ولفظي أحب اليّ من أن أصير ملسوعاً بابرتـه ، مـكسوعاً بحضرته وبعده ، ولأن يقوم غيري مقـامي فأكون حريّها مودعاً ، اسلم من الق (...) ام اعرى وابقى مسفهاً مروغاً .

قال الشيخ ابو حيان : هذا ما انتهى القول في الخط وصفاته والقلم وحالاته وان زدنا على ذلك ثقل وملّ . وأرجو ان تعيره من رضـاك (ما) يـكون لي سبباً قوياً في المكانة من قبلك والقبول في نفسك والسلام .

تمت الرسالة والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين
وصحبه الاكرمين وسلامه على الفقير الوهّاب الغني
ابراهيم بن الحسن البواب البغدادي في اواخر
شهر رمضان المعظم سنة ثمان وعشرين وسبعمائة
رب اختم بالخير



نموذج من رسالة الحياة — مخطوطة مكتبة شهيد علي في استانبول رقم ١١٨٦.



رسالة الحياة



رسالة الحياة

لأبي حيان التوحيدي

بسم الله الرحمن الرحيم

وهو حسبي ونعم الوكيل ، رب تمم بالخير

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، اللهم اجعل فكرنا في ملكوت سمائك وارضك وما بينهما ، عائداً علينا بمعرفتك، وبحثنا عن اسرار حكمتك ، محركاً لنا الى خالص توحيدك ، وتصفّحنا لظاهر علمك وباطنه ، مفضياً بنا الى الثقة بك، واستيحاشنا عن كل ما يُبعدنا عنك ، باباً مفتوحاً للأنس بذكرك، وبراءتنا من عبادك الجاهلين بك، الضالين عنك ، موصولة بطاعتك ومرضاتك ، ومهما أثبتَّ في أمرنا فاخصصنا بتأييدك ، واعممنا بتسديدك (وأمتِع) قلوبنا بالرضا عنك؛ وأهزُز ارواحنا بالشوق اليك ، واشحَذ ألسنتنا بالدعاء الى عبادتك ؛ وطهِّر افئدتنا من أدناس الشكّ والرّيب في طلب القربة عندك، وأرِنا الحق في معرضه البهيّ المونق حتى ننتحلَه موقنين ، وبيّن لنا الباطل في منظره الزريّ حتى نولّي عنه مُعْرضين ، وفي الجملة والتفصيل كن لنا ناصرًا ، ومعيناً حاضرًا ، وإلينا ناظرًا ، وهيئنا للحَذَر من خَطَرات الحيرة ، ونظرات الحسرة ، وأملأ قلوبنا بالنور الذي من خُصّ به

أبصر ما دونه فتوقاه ، وما فوقه فتلقاه ، وما عن يمينه فاختاره ، وما عن شماله فاحترز منه ، وما أمامه فانتظره ، وما وراءه فاحتقره ، وحلّنا بشعارٍ لا نتَحدث به الّا عنك، ولا ندعو به الّا اليك، ولا نُثني به الا عليك ، ولا نتهالك الا من أجلك، ولا نخضع ولا نضرع الا لوجهك، يا ذا الجلال والاكرام ، ويا مصرِّفَ الأيام بين النَّقْض والإبرام .

جرت أدام الله رَوْح قلبك ، وبرد فؤادك ، مذاكرةٌ في البيان عن أصناف الحياة التي هي محبوبةُ كلِّ نفس ، ومطلوبةُ كلّ ذي حسّ ، وكان الكلام فيها يقسو مرةً ويلين أخرى ، ويخمد طورًا ، ويتّقــد طورًا ، ولا يأتلف ائتلافاً ، له فنون ترسم بالعلم ، وتنبسط باللفظ ، وذلك لكلول الحِدّة ، وعلو السن ، ونضوب ماء الوجــه ، وانفضاخ مَتْن الحال ، وبَيْد قوى الطبيعة ، وتهافت قوة الفطرة ، وخلوقة الأدمة ؛ والبَشَرة ، وعوارض آفات القريحة ؛ وتباعد اقطار العبارة عن الحقائق المحدودة ، ثم اني نعمت بشيء منهــا على (×) في الحديث السانح المعهود عند بعض الرؤساء ، ممن آتاه الله عبرةً في أمره ، وصحة استبانة في شأنه ، فعرف ما عليه وله ، وقَصَرَ زمانه على أختيار النافع عاجلًا ، واجتناب الضار آجلًا ، هذا مع اشغاله المتكاثفة ، ونظره المتوزّع ، وفكره المتعَب أخذ الله بيده وأعانه على ما يحمل من امره ، فلما فهم أعجب ، ولمّا أعجب حضّ على تأليفه في كتاب ، وتلطّف في ذلك بأحسن قول ، ووعد عليه أجزلَ ثواب ، وفيّل[1] الرأي في النّكول عنه ، والرضى بالجواز عليــه . وقال : في

(١) فيَّلَ الرأي : ضعّفه .

نشر الحكمة ثوابٌ روحاني ، وذكرٌ دهري ، وصيتٌ باق ، وبهجة مومَوقة ؛ ولو لم يكن فيه الا التلذّذ به ، واستفتاح بابٍ بعد باب يليه لكان يجب ان لا يكسل عنه ، ولا يجنح الى التفريط ، والتقاعد دونه . وهذا الذي قاله هذا السيد ظاهر الصواب ، ناصع الدليل ؛ موجود البرهان غير مشكوك فيه ، ولا مرتاب منه . ولكن اين البال الرخيّ ؛ والفؤاد الذكيّ ؛ واللسان الحليف ؛ والصديق المساعد؛ والمستمع الواعي ؛ والطالب الراغب ؛ وأنّى لي الامان من الخطأ والسلامة على المنحنى .

هذا وقد قال سقراط الآلهي : افرحْ بما لم تنطِق بـه من الخطأ اكثرَ من فرحك بما لم تسكت عنه من الصواب ، وهذا كلام نفيس يحثّ على معرفة مواقع النطق والصمت ، وهذه المعرفة نتاج للفكر الصحيح ، آتية بالحق ، جَلوبة للرشد ، هيهات ، غامت سماء العلم وأظلم جوّ البيان ، وانكسر فقار الدين ، وتحطَّم عمود الشباب وقلّ نصير الأدب ، وتقوّض بناء الخير ، وبلِيَ ثوبُ المروءة ، وغارت عين الحياة ، وعقمت أمُّ الوفاء . فـلا جَرَم لا بابَ للعرف الا وهو مسدود ، ولا جُرُف للعقل الا وهو مُنْهار ، ولا جانب للفَيْض الا وهو مُنْثلم ، ولا ثَغْر للحكمة الا وهو مُستَباح ، فالمصيبة عامـة ، وإن كان العزاء خاصاً ، والبلاء شامل ، وان كان المكترث به قليلًا ، والعَجَب حاضر ، وإن كان المتعجّب غائباً ، والعليل مستغيث ، وإن كان الطبيب مفقودًا .

وأقف عن هذا الحديث فانه قد قيل مسلسلًا ليس بين يديهِ حاجز

يصدّ ، ولا مانع يمنع إلّا أَنْ يأذن الله بفرحةٍ يقيّضها ، ونشأةٍ أُخرى يُعيدها ؛ ونظرةٍ يُجبَرُ بها كَسْر الزمان ، وجذم اصله وفصله الحدثان ، ومن دون ذلك ما يتزحزح عن هذه البقعة الخاصّة بانواع الأسى والحُرقة . نسأل الله العظيم ان يقضي ذلك مرفوعاً بغفرانه قبل ان يتمنى بالقلب واللسان فالأول يقول :

فالموت خيرٌ للفتى فليهلكن وبه بقيه
من ان يرى تهديه ولدان المقامة بالعشيه

فانه ولي ذلك والقادر عليه .

نعم أبقاك الله وأتمّ نعمته عليك ، ومع الذي قدمت وأخّرت ، وصعّدت وصوّبت ، فإنني لم أرَ من حقّ هذا الصديق الكريم ان اخالفه عامدًا ، وانحرف عن مراده مُعاندًا ، بل رأيت ان اتقلّد الكلام في ذلك بالغاً وقاصرًا ، ومنتهياً ومتوسطًا لأنجو من عتبه ، وأفوز برضاتِهِ وليكونَ وجهي في طاعته أغرّ واضحًا ، وصوابي عنده مقبولًا ، وخطإي لديه مُحتملًا .

وأعودُ فأقول في شرح أصناف الحياة بمبلغ العلم الذي عندي ، فاذا فرغتُ منه اضفتُ الى جملته فقرًا شريفة ، بعبارات مألوفة ، على قدر الرسالة فان تلك اشبه للحال ، واجلب للفائدة ، وأحسم لمادة التكلّف ، وابلغ الى الغرض المنحو ، وآتى على المراد المقصود ان شاء الله تعالى .

اصناف الحياة عشرة : ثمانية مُتّعتْ بها البشر على التفاوت الواقع بين الحيّ والحيّ كما سنبيّن من بعد ، واثنان مرتقيان الى ما يشكل

العلم به إلّا في الجملة ، ويعتاص المراد منــه إلّا مع التسليم ، فالصنف الأول يقال له حياة الحِسّ والحركة . والصنف الثاني يقال له : حياة العلم والبصيرة . والصنف الثالث يقال : حيــاة العمل والكدح . والصنف الرابع يقال له : حياة الخُلُق والسَجيّة . والصنف الخامس يقال له : حياة التديّن والسكينة . والصنف السادس يقال له : حياة الكمال الأول . والصنف السابع يقال له : حياة الظن والتوهّم ويقال له ايضاً : حياة الذِكر . والصنف الثامن يقال له : حياة الكمال الثاني وهي حبّ العاقبة .

فهذه ثمانية اصناف ، ويتدرج فيها الواحد بعد الواحد من البشر بحسب السهام العلوية والمكاسب السفلية والتأهيل الآلهي بالمواهب السابقة ، والتكامل البشري والمساعي السابقة . والصنفان الآخران احدهما حياة الملائكة والآخر ما يقال له : ان الله عزّ وجلّ حيّ ، وهــاتان الحياتان نقتنع في أمريهما بالكتابة عنهما . لاشكال الكُنْه فيهما ولإضراب العقل عن تحديدهما وحَرَج الصدر عن توهمها وتمثيلها فيك فنقول :

***

اما الحياة الأولى فهي حيــاة الانسان التي بها يُحس ويتحرّك ويلذّ وينعم ويشتكي ويألم وهذه مشتركة أعني أنّ ضروب الحَيوان من فرس وحمار وخنزير وقرد وغير ذلك لها هذه الحيــاة التي تشتمل على الحسّ والحركة والقوم الى الغذاء ، والحاجة إلى البقاء ، وبها يتعلق الى تحلل المنحل منها ، وبها يتشوق الى استجلاب امثاله إليها ، ولا تفاوت في تلك الحياة بين هذه الضروب بل كلها تجتمع في الصفات ،

ويقبل بالطبع الأول هذه الحالات فلهذا لا يقال : هذا الحي أَحيا من هذا الحيّ وقد يُقال : زيد أَحيا من عمرو أي انه اكثر حياءً منه . ولعله يقال ايضاً : هذا الحيوان أَحيا من هذا الحيوان، أيْ اطول مدةً في الحياة ، فأما في نفس الحياة فهي في الجنس والنوع والشخص واحد فقد بَان أنّ الصنف الاول من اصناف الحياة قد اشترك فيه ، وهذا الاشتراك وقع بالحكمة كالأَساس لباقيها ، وكالغَرس لكل ما يدخل في حَوزتها .

***

واما الحياة الثانية فهي حياة العلم والمعرفة والفَهْم والدِراية والحفظ والرويّة والحكمة[1] والبحث والاستنباط والمسألة والجواب وهذه الحياة تُستفاد بالتأييد الآلهي ، والاختيار البشري، مع النيّة الحسنة ، والسعي الدائم ، والمحبة النفسية، واللطافة الروحية ، والرِقّة المِزَاجية.

فأما الحياة الاولى فهي مع الجِبِلّة والفِطْرة ، وهي صورة الطِينة ولذلك وقع فيها الاشتراك من الجميع وهذه الحياة هي المادية لصاحبها الى نيل الكمال وبلوغ الآمال ، والتفاضل الواقع في هــذه بحسب الحظ والاطلاع والسلوك والزَمَاعَ[2] فإنْ عَرَضَ النقص في سلوك هذه الحياة فإنّ صاحبها يصير شبيهاً بضروب الحَيوان التي وصفناهــا من قبل . وإن كان ارفعَ منهــا في الجواهر ، والسِنْخ ، والعنصر ، والشَكل ، والنفس وإن استمر صاحبُ هذه الحياة على اخذ الفوائد المُجْدية ، واقتباس المعارف المحققة صار شبيهاً بالملائكة الذين بسائطهم

(١) في الهامش : حياة حسن التمييز للقوة النظرية .

(٢) الزماع : المضاء في الأمر والعزم عليه

مركّبة على تركيباتهم ؛ وجسميتهم ملوكة بروحانيتهم ، وكثافتهم مغلوبة بلطافتهم . فعلى هذا إنْ قيل : إن العالم أحيا من الخامل ، أي أكثر حياةً في هذه الحياة التي فسرنا لم يكن منكرًا ولا بعيدًا .

***

واما الحياة الثالثة فهي حياة العمل الصالح بالرفع والوضع والأخذ والعطاء والعشرة والصداقة والوَداعة والرعاية وحسن العهد وصدق الوعد، وهذه الحياة اذا انضمت الى الحياتَين الأولَيَيْن كمّلت الانسان، وزادت في قيمته ، وعَلَت من درجتهِ ، وأفادتهُ شرفاً أبديًّا ، وعِزًّا سَرْمديًّا ، وألبستْهُ جِلْبابَ البقاء ، وسلَّكتهُ الى كَنَف السعادة ، وخَلَطته بزمرة الملائكة .

***

وأما الحياة الرابعة فهي حياة الدِيانة والسكينة ، وبها ينال صاحبُها خَيْرَ العاجلة والآجلة ، لأن سِرْبال الدين صافٍ ، وقُلّتهُ علية ، وعُقْباهُ مأمولة ، وسريرته ظاهرة ، وعلانيته مرضية ، فبالتديّن يكملُ الناقص ، ويزداد الراجح ، وينجو الْمشفي ، ويَبْرَأ العَليل ، ويرشد الغويّ ، ويستبصر العميّ ، ويهتدي الضالّ ، ويستقيم المعوجّ ، ويُدرك الفائت ، ويستبان الغيب . وتمجيدُ الدين طويلٌ لا غايةَ له فيوقف عندها؛ ولا حدّ له فَيُنْتَهَى اليه فلذلك نبسط عُذرنا في الإمساك عنه بعد الدلالة على نصّه .

***

فأما الحياة الخامسة فهي حياةُ الاخلاق التي مَنْ هذّبها ، ومَنْ تهذّب بها ، ونفى خبيثها ، وتحلّي بطيّبها ، هَنُأَ عيشُهُ ، وعيشُ من يعايشهُ ،

وصفيت سريرته من الكدر ، وبرّ سعيُهُ في كلّ ما حلا وأمر ، وإنما أفرزْنا الاخلاق من الديانة والسكينة والعمل الصالح لأن الخُلُق تابع للخَلْق بالمضارعة اللفظية، وهو ينقسم بين ما يزول بالرياضة كلّ الزوال، او يقلّ بعضَ الإقلال ، وبين ما يكون صورة للنفس لا يطمع في البراءة منه ، والطهارة عنه، وقد صنَّف الحكماء الأولون والآخرون كتباً في الأخلاق وذكروا أعيانها باسمائها وصفاتها ، وحدودها ورسومها ، ومجملها ومفصلها، ودلّوا على الحَسن والقبيح منها ، ودعوا الى التحلّي بأحسنها ، والتعرّي من أسمَجِها ، فضربوا لها الامثال ، وسحبوا عليها ذيولَ المَقال ، فلذلك كفت الإشارة في الجملة اليها دون التفصيل الدال على خلق خلق منها ، ولو ميّزنا الاخلاق بالشرح في هذا المكان للزم ايضاً ان نشرح الدين والعمل وجميع ما سلف اللفظ به وأتى الذكر عليه .

***

واما الحياة السادسة فهي ان نستجمع من جملة الحَيوات المتقدمة لأنّا كما رسمنا كل واحدة منها باللفظ الوجيز ، والعبارة الخاصة دللنا في هذا المكان على صورة أخرى تحدث لها بالتناظم والتلازم والاجتماع والتأليف لم تكن من قبل لأن الاشياء المفردة ، صورها مخالفة للاشياء المتضامّة ، وكذلك الاشياء المتباينة ليست كالاشياء المتلائمة وهذا عِيان وهو غنيّ عن البرهان ، فمن فاز بهذه الحياة علا شأنُه ، وشَرُفَ مكانُهُ ، وبلغ الى فَجْوة النجاة .

***

وأما الحياة السابعة فهي حياة الظن والتوهّم أعني ما يغلب على

الانسان من الذِكر والصيت والشهرة بأي وجه كان ولذلك قال الأول : ان الثناء هو الخُلد . ولما شعر الانسان بالبقاء جَدَّ في طلبه بكل وجه ، وشامَ برقه بكل طَرْف ؛ وحلم به في كل نُعاس ؛ وتمناه في كل انتباه ؛ وكل أحد يتوهم نوعاً غير نوع صاحبه بقدر مزاجه ونقصه وزيادته ؛ وعقله ورأيه ؛ وبديهته ورويته وعلى هذا (وهماً[1]) الناس . وصاحب هذا الغرض لما غفل عن البقاء الحق سَعَى في كسب الحياة التي كأنها بالذكر والصيت والاشتهار كالحياة المألوفة بالحسّ والحركة ؛ ومن هذا الضرب طلب الانسان النسل لأنه يتخيل لبقاء النوع شبهاً لبقائه الشخصي ولهذا يقال: نَسْله اي نَسَل منه ، وسُلالتُهُ اي سُلَّ منه ؛ ومُصاصتهُ اي مصّ منه ؛ والفرق بين الحياة والبقاء ؛ والعيش والدوام ، والثبات والخُلد ؛ والكون والوجود مشهور واضح . فان تركنا ذكره ميلًا الى تخفيف الرسالة جاز ؛ وان هَشَشْنا للإشارة إليه ساغ ؛ وتقول في ذلك بعد هذا الشرح عليه ما يتيسّر وان كان غير آتٍ على الغاية . اما البقاء فهو أعم من الحياة لأنّا نقول في الحي باقٍ ، وفي غير الحي ايضاً نقول : باقٍ ؛ والحياة أَدْخل في الِحس لأنها أعلق بالحركة ؛ والباقي قد يكون بحركة وغير حركة ؛ فاما العيش فانه اشد لطافةً بمادة الحياة ؛ وكذلك يقال : خرج فلان في طلب المعاش . فاما الحياة فقد كانت قبل هذا الخروج ؛ ولذلك يقال في الله تعالى حيّ ولا يقال عائش .

وأمّا الثّبات فالاشارة فيه الى الرسوخ ، والامتداد منه عارض . وأما الدوام فالامتداد فيه أَبْيَنُ إلّا انه في المحسوس أَحْرَى .

(١) كذا في الأصل .

وأما الخلد فكأنه أدخل في الامتداد الذي لا طرف له .

وأما الكون فهو من حركات الزمان وأثر الحِدْثان .

وأما الوجود فليس من هذا القبيل لأنه في الحقيقة في حضن الدهر إلا ان الدهر لمّا كان أمَّ الزمان استعير منه ، ونُعتَ بولده الذي هو الزمان . وفي الجملة اذا تشابهت الاسماء دَقّ الفرقُ بينهما ، كما أنه اذا تباينت الاسماء شَقّ الجمعُ بينها ، والنعت انما يصحُ اذا كان عليه نور الحِس ويتحقق اذا طافَ به نور العقل ، وكل خفيّ في ساحة الحِس فهو بادٍ في فضاء العقل ، وكل بادٍ في فضاء العقل فهو خفيّ في ساحة الحِس ولولا هذا البوْن لكان الاستدلال من الشاهد على الغائب سهوًا ، والاستنباط من الغائب في الشاهد لغوًا ، او لكانت الامور ظاهرة على سير لا يختلف في تناولها وادراكها والإحاطة بها ولكن ليس الأمر هكذا ، واذا لم يكن ما تريد فأرِدْ ما يكون ، فعلى هذا لا تثق بشهادة الشاهد في كل مكان ؛ ولا تَرْتَبْ بحجةِ الغائب في كلّ زمان ، لكن أَضِفْ ابدًا الى حجة الشاهد أثرًا من الغائب ، واضف الى الغائب أثرًا من الشاهد حتى يَبين لك القياس ، فان العالم متلبس أعني أنّ بلد الحس مُتاخِمٌ لبلد العقل إلا أنّ نور الحس وإن كان شائعاً فهو قَمَري ، ونور العقل وإن كان غير شائع فهو شمسي ، وأنّ دائرة هذا أعني القمر من دائرة هذا اعني الشمس فافهم فان هذه النكتة متلقّاة بالتحيّة ، وهذه الغويصة موشّحة بالرحمة .

قد بَعُدْنا عمّا كنّا فيه بهذا الاعتراض ، والرأي الرجوع اليه ، فالكلام اذا وجد مسرحاً لم يقف ؛ والخاطر اذا اصاب سَحّاً لم يكفّ .

***

نعم وأمّا الحياة الثامنة فهي حياة العاقبة ، وهي التي تنال بعد المفارقة التي تسمى الموت ويستفظعُها الجمهور ، والاجتهاد والسّعي والكَدْح والدّؤوب والاعتياد والتجمّل والتكلّف والقيام والقعود والعِبادة والزهادة والتعب والمشقة والقلق والسؤال والجواب والاستعانة كلها لهذه ، وانما احتيج الى جميع ما سلف القول فيه من اجلها لانها الغرض الأقصى وإليها المنتهى ، وهي بالتمثيل شخصٌ وما سواها ظِلٌّ ، وعَيْنٌ وما عداها أثر ، ويقظة وما قبلها حُلم ، وانما كان كدح الفلاسفة اليونانيين والإلهيين والطبيعيين والمتقدّمين والمتأخرين (×) بهذه الحياة الجامعة بين السرور والبقاء السرمدي في حظيرة القدس ومراد الأُنس ، حيث لا يتعذر مطلوب ، ولا يفقد محبوب ، حيث الطمأنينة والروحانية عند ربوة ذات قرار ومَعين ، وحيث لا عبارة لنا عن كنهه لأنه بلد لا عهد لنا به ولا ألفة بيننا وبين شكله ، وإنّما شعرنا بهذا كله بنورٍ إلهي سرَى إلينا فشاع فينا ووجدناه يقيناً لا ريب فيه ، وشهدناه عِيانًا لا مِرْيةَ به ، والعِيان العقلي فوق القياس الحسّي ، لأن العقل مولى والحِس عَبْد ، وشهادة المولى مقدمة على شهادة العبد ، فلذلك عرّينا أنفسنا جُهْدَنا وطاقتنا عن كل أصفرَ وأحمر ، وعن كل حلو وحامض ، وعن كل لين وناعم ، وعن كل زِبْرِج رائق وفاخر فائق . وفي الجملة عن كلّ ما أوثق القيد ، وأوْبَقَ النفس ، واوقع الدين وبالغ في اجتلاب الهلكة ، نعم ورفعنا قرناء السوء من داخل وخارج رغبةً في تلك الحياة ، وشوقًا الى هذا الملكوت ، ووجدًا بهذه الغبطة ، وطرباً الى هذا النسيم ، وشقًا للجيب على هذه

النعمة ، تدرجاً الى هذه العاقبة . ولعمري ان من سافر الى بلد العدل والأمن والخِصب مرّ في طريقه على كل مشقّة و< قلّة > أعوان وجَدْب وما هذا والله بالصعب ، ولا بالشديد مع هذا العمر القصير ، والعيش العسير ، والعوارض المؤذية ، والشدائد المعترضة ، والآفات المترددة. نسأل الله الذي بيده ملكوت كل شيء ان يحوّلنا من هـذا العَناء المحشو بالعَناء بعد العناء الى ذلـك الجِوار المكنون بالقرار بتيسيرٍ وتسهيلٍ ، ورضى قلب ، وتسليم نفس ، ورقة بال ، وفؤاد مجيـد قريب مجيب .

***

فهذا شرح اصناف الحياة الثمانية على ما جادت القريحة؛ وساعدت العبارة عليه ؛ فاما الحياتان الباقيتان اللتان احداهمـا للملائـكة ، والاخرى التي بها يقال لله تعالى جده حيّ فليستا من الأصناف التي يَلِجُ الوهم في كُنهِها ؛ او يُلمُّ النطق بحقيقتها ، ونعوتها لم تقع الينـا جملةً في عرض التسليم والتعظيم ، وكم من جملة نَبا التفصيل عنها ، وكم من تفصيل وقف عن جملتـه البيان ؛ ولهذا حَسُنَ ان نسلو عن كل فائت من تلك المعانِ ؛ ونتعلل بما وضَحَ لنا في هـذا المكان ؛ ولا نتـكلّف ركوب البحر بلا سفينة صحيحة ؛ ولا آلـة حاضرة ، ولا ملّاح ماهر ؛ وذلك الجرم محروس من إشراق الوهم ؛ ومن تغلغـل العقل . ومن رسوم الذوات ، ومن حدود الصفات ومن الجسارة على ما يجلّ عنه ، ويعتلي عليه ؛ نَحْنُ مكانيون ؛ زمانيون ؛ خياليون ؛ وهميون ؛ ظنّيون ؛ متقسمون مما كان وما يكون ؛ حرّيون بالجهـل جديرون بالنّقص . وانما نُدرك بعضَ ما ندرك اذا صفت طينتُنـا ؛

وزال عنّا تقسّمنا ؛ وفارقنا وَهْمُنا ؛ وزال حِسّنا ؛ وعَلا زماننا الى دهرنا ؛ وعطف علينا العقل بشُعاعه ، وأودعنا ما هو من جواهره ودرره . فأما ما دمنا نرتكض في ظله الهيولي فإنّا نفقد كلّ حظٍّ جسيم؛ ونتجه على كل فائت متمنى؛فاذا اقررنا بهذا الإشكال العويص فقد حرم الكلام في هاتين الحياتين اللتين ليستا من باب الهَيولي والصورة وتخطيط الطينة المهِينَة الا من جهة الدلالة عليها من ناحية الاسم المستعار لها فذا هذا وقد سقنا كلاماً لزمنا من حثٍّ على نظم منتثر ؛ وجمع منتشر ، على أنّا لو أَردنا شرح ذلك بنوع آخر من البيان لكنا نعجز عنه ؛ او نتعرض لحدوث الملل منه ؛ ونرجع الى ما وعدنا من اضافة لُمَعٍ من كلام فلاسفة اليونان وغيرهم الى ما تقدم؛ فان في ذلك معونةً لما مضى وتنبيهاً على حقيقتهِ ، ونفياً للشبهة إنْ عَرَضَتْ فيه ؛ وان وجدنا قوة في الكلام على شيء منها وصلناها بما يزيدها صِقالًا عند السمع ؛ ويزيدها جمالًا عند الفَهْم ؛ ويُكْسِبها ثقةً عند النفس ان شاء الله تعالى .

***

قال اوميرُس : اني لأعجب من الناس وهم يمكنهم الاقتداء بالله سبحانه وتعالى فيدعون ذلك الى الاقتداء بالبهائم والسباع فقال تلميذه : لعل هذا هو لأنهم قد رأوا انهم يموتون كما تموت البهائم . فقال اوميرُس:فلهذا السبب يكثر تعجبي منهم من قبل انهم يحسبون انهم لابسون بدناً ميتاً ولا يحسبون ان في ذلك البدن نفساً حيّة غير مائتة وفي هذا الذي قال هذا السيد تنبيه تام ، وزجر نافع ؛ وإيضاح لبعض ما يمر باطرافه الشكُّ . ويبعد في احكام الحكمة ان يكون

الانسان مع فضائله التي هي العقل والتمييز والمعرفـة والعلم يفارق البهيمية والسَّبُعيَّة في الأوَّل بالتحقيق ؛ ثم يصير مشا كلًا لهذا الثاني اعني في الفناء والبطلان، كأن هذه الخيرات التي مُنِحَها وخُصَّ بها انما كان الغرض فيها ان يعتملها في منافع هذه الحياة الناقصة المنقصة والاحوال البائدة المنتهية، لا وحق العقل الذي اذا شهد صَدَق، واذا بيّن حقَّق، بل وقعت الميزة والخصوصيـة في هذا الطرف لتكون مستصحبة للتضاعف والتزايد والاستثمار الى الطرف الآخر ولا تضيع ولا تضمحل بل تبقى وتثبت وتنمو وتزكو لأنها لو انقضت بانقضاء الانسان ولم تثمر في الثاني بعد ان ازهرت في الأول ولم تخفف آنفًا كما وعدت سابقًا، ولم تتم بباطنها كما نقصت بظاهرها، ولم ترمز لغايتها كما افصحت لشاهدها لكانت الحكمة مبتورة، والقدرة مقصورة، والجود مشوباً، والكرم مروباً، واليأس واقعاً، والخيبة غالبة، والرجاء ضائعاً، ومعاذ الله من ذلك، بل لما كان مبدأ السباع والبهائم مخالفاً لمبدأ الانسان بالصورة المشاهدة بالعين والصورة المدركة بالعقل كان الانسان مخالفاً لمنتهى البهائم والسباع بالاعتبار المستفاد من العقل والتمييز الحاكم بالاولى والاخرى، والرأي المصفَّى من الهوى .

قال سقراط : نحن نعيش عيشاً طبيعياً كي نعيشَ عيشاً عقلياً فاذا كان العيشُ الطبيعي انما نحتاج اليه للعيش العقلي فلا نعطي القوة الطبيعيَّة شيئاً اكثر مما تدعو اليه الحاجة والضرورة، وهذا الذي قاله هذا الفاضل بيّن، وهو غني عن التفسير وقد نضر ما تردد

الخطاب فيه ، وتألف القول عليه ، وسارت العبارة الصريحة والاشارة الكلية نحوه . قال زيد « < بن رفاعة > » لتلميذه : لا تخفْ موتَ البدن ، ولكن يجب عليك أن تخافَ موتَ النفس . فقال تلميذه : لِمَ قلت : خافوا موت النفس ، والنفس الناطقة لا تموت عندك . فقال: اذا انتقلت الناطقة من حدّ النطق الى حدّ البهيميّ وإنْ كان جوهرها لا يبطل فإنها قد ماتت من العيش العقلي . قال ابو سليمان : صَدَقَ هـذا السيد لان النفس كما تستنير بالمعارف الصحيحـة والعقائد اليقينية ، والحركات المعتدلة ، والافعال الواجبة . كذلك تصدأ وتُظلم وتثوى بالجهالات الراكدة والآراء الفاسدة ، والحركات المختلطة ، والاعمال الشنيئة ، والحالتان في طرفين متباعدين وليس الصديّ كالجلو ، ولا الطالع كالغارب ، ولا الوجه كالقفا ، ولا العالي كالسافل ، الامور موزونة ، والمثال واضح ، والقياس صدوق ، والاعتبار حق ، والتقصير وبال ، والهويناء سَفَه ، والاحتياط محمود ، والمستظهر مغبوط ، والراغب الى الفاني فانٍ ، والراغب في البقاء باق ، ومن طلب وجد ، ومن جَبُن استنجد .

قال سويقلس : ان الذي لا يعلم أن له حياةً إلّا حياة طبيعية فقط فهو شقي ،وذلك أنّ هذهِ الحياة الطبيعية شبيهة بالظِل الزائل ،والنبات السريع الجفوف ، وبقاء صاحبها على الارض قليل يسير بسيرة البهائم ، فاما الذي يعلم ان له مع ذلك حياة نفيسة يغدوها بالنطق فانه غير مائت وهو مغبوط باق يقتدي بافعاله بالله عزّ وجلّ .

قال أفلاطون : لتكن مبادرتكم الى الخروج من الدنيا كمبادرتكم

في الخروج من الوليمة الى أهاليكم. هذا مثل صحيح واضح ولو قال: لتكن مبادرتكم الى الخروج من الدنيا كمبادرتكم في الخروج من السجن الى احبّتكم في الجنان الملتفّة، والحدائق المونقة لكان ابلغ، وفي الحقيقة أوغل.

وقال أفلاطون: الموت موتان، موت إرادي، وموت طبيعي، فمن أمات نفسه موتاً ارادياً، كان موته الطبيعي حياةً له، هذا أيضاً في غاية الظهور؛ ونزيده نوراً بالعطف عليه، فان الكلام يكون تارة خافياً، وتارة في غاية الخفاء، ومرة بيّناً، ومرة في غاية البيان، فالحاجة الى تفسير ما في غاية الخفاء اشدّ من الحاجة الى ما هو في اول الظهور، وهذا كشعاع الشمس لمّا كان في غاية الظهور والانتشار كان صعب المدرك، وما هكذا القمر، فإنه إذا كان دون ذلك امكن ادراكه، ويستريح النظر فيه، فبهذا العُذر نجسر على تفسير ما هو ظاهر بما هو أظهرُ منه، او على تفسير ما هو اظهر بما هو اعدل منه اي اقرب الى الفهم، وألوَط بالذهن، واقرب منالاً من العقل. فنقول: الموت الإرادي هو قمع الشهوات المُردية، وإخماد نيرانها المُحرِقة، وتسكين سوانحها المُتلِفَة، ونفي نوازيها الجامحة. فبهذه الحالة تفرغ النفس العاقلة لاقتناء كمالاتها الالهية، وإفاضة حركاتها العدلية، وإبراز سكناتها الكمالية، فاما إذا كانت الشهوات واقدة، واللذات مطلوبة، والعادات غالبة، فان النفس العاقلة إما ان تكون ذليلة في مكانها، او مهزومة عن اوطانها، او في حرب دائرة الرحي، مَخُوفة العاقبة والمنتهى، واما الموت الطبيعي فهو غير مشكوك « <فيه> » لأنه

حائل الاخلاط ، ذو قوة متناهية ، والاخلاط مقاديرهـا محدودة ، والذَوَبان والسيلان يعملان عليها في الجملة والتفصيل والزمان بتصاريفه بعدّ الفناء ، وتحيّف البقاء حتى يكون آخر ذلك بالفراق الحسّي . لكن بهذا الفراق الحسّي يقع ذلك الوصال العقلي . فهذا هذا .

واما قوله : فمن أمات نفسه فإنّما أراد النفس الشّهْوى ، فلا تغلط في الاسم اذا شابه الاسم ، فالاسماء قد تقترن في مواضع ومعانيها مفترقة ، والمعاني قد تنتظم في اماكن واسماؤها منتشرة ، ولهذا احتيج الى الآلة المنطقية والامثلة القياسية في الامور الجزئية .

واما قوله : كان موته الطبيعي حياةً له فقد تقدمت شهادة الحق في طيّ ما سلف من الشرح .

وقال دمقراطيس : أَمِت الشهوات في النفس ، ولا تُمِت النفس في الشهوات ، فانك اذا أمتّ الشهوات فيها فقد القيتَها في الشهوات ، واذا أمتّها في الشهوات فقد حرمتها الشهوات . يريد بذلك انك اذا حرمتها حظوظها العاجلة فقد وهبتَ لها حظوظها الآجلة ، واذا غمستها في حظوظها العاجلة فقد حُلتَ بينها وبين حظوظها الآجلة وهذا واضح .

وقال فيثاغورس : النفس بحر الشهوات ، والعقل بحر النجاة ، والحكمة بحر الخيرات ، والجهل بحر الضلالات ، والموت بحر الحياة .

وقيل لدوفنطس : ما تقول في الموت أَخيرٌ هو أو شرٌّ ؟ فقال : أيُّ خير في فرقة الاحباب ، وذوي المودّات لولا الفكّ من الأسر ، والراحة من الجبر والكسر .

وقيل لنيقوماخوس ذلك فقال : نِعْمَ المآبُ لولا فُرْقَةُ الاحباب وما يتوعدنا فيه الآلهة من العذاب .

هذه اشارة الى سوء العاقبة الذي كسبه بسوء الاختيار . واسم الآلهة ها هنا مستعار .

وسمعت بعض الزهّاد عند موته يقول وقد نظر في وجوه اصدقائه واصحابه وهم عند رأسه : ما أشدَّ مفارقةَ الاصدقاء فقلت له : إنْ كنت على ثقة من القدوم على اصدقائك الذين قدّمتهم فلا تأسف على اصدقائك الذين خلفتهم ، وإنْ كنت على غير ثقةٍ فلا تَأسفْ فامضض نفسك بالأسف عليها فقد فاتتك وفتّ بفوْتها .

وقال انكساغورس : كما ان الموت رديء لمن الحياة جيدة له فكذلك هو جيّد لمن الحياة له رديئة ، فليس ينبغي أنْ يُقال: إنَّ الموت رديء فقط بل جيّد ايضاً ، لا بل ينبغي أن يقال : الموت ليس جيّداً ولا رديئاً لكنه بالاضافة الى شيء ما يكون جيداً او رديئاً .

وقال فوثاغورس : إنَّ آثار الطبيعة في هذا العالم قد رُمِزَت بظاهرها رمزاً بعد رمز ليلخص باطن ما في هذا العالم الذي هو قبالة ذلك العالم ، فمن تلك الآثار أنَّ الطبيعة لم تخرج اشخاص نوع الانسان كاملة الاعضاء ، صحيحة الآلات ، بل منها الشخص التام أعني ان يكون ذا لسان وعينيْن ويديْن ورجليْن وسائر ما يتم به البدن ويقدر على منافعه الحاضرة والغائبة ، ومنها الشخص المشوه الناقص كانسان لا يدَ له ولا عين أمام العاهات المعروفة والآفات المعهودة . وكما ان

هذا الحكم ظاهر في اشخاص هذا النوع كذلك الحكم واضح في نفوس هذه الاشخاص أعني أنَّ منها النفس الفاضلة الكاملة ، النقية المقدسة ، ومنها النفس الناقصة الخسيسة الضعيفة المُدنّسة ، ومنها النفس المتوسطة ، هكذا يمكن ان نبعث بعده ، وكما ان الاشخاص التي عدمت هذه الآلات التي بها تتم منافعها ها هنا معذبة ، كذلك الانفس الشريرة احوالها في مَعادها ومنقلبها رديئة .

قال ابو سليمان[1] : وهذه عبارة شافية في الشقاوة والسعادة ، قال : ولو أن انساناً قال : إن الأعمى والأخرس او الزَمِن أو من أشبه هؤلاء شقي لم يَبْعُد ؛ وإنَّ البصير الناطق الصحيح السوي هو سعيد لم يَبْعُد ، كذلك الذي نرى ان العالِم الخيّر الحكيم في المَعاد سعيد ، وإنَّ الجاهل الشرير السعيد في المَعاد شقيّ لم يَبْعُد فهكذا أيضاً هذا .

قال أبو زكريا الصَيْمري[2] : طبقات الناس من عالم خيّر أو عالم شرّير ؛ أو جاهل خيّر أو جاهل شرّير . قال: وليس في القسمة أن يكون العالم لا خيّراً ولا شرّيراً ؛ وأن يكون الجاهل لا خيّراً ولا شرّيراً قال: فهذه الاحوال منوطة برقاب اهلها في الاول والآخر ؛ والظاهر والباطن أي قبل الموت بالحياة وبعد الحياة بالموت .

---

(١) هو ابو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجِستاني ، تلميذ أبي بِشر متّى بن يونس القنّائي ويحيى بن عديّ . كان من اعاظم علماء المنطق والمطّلعين على دقائقه واسراره، وله «نظر في الأدب وشعر» وكان التوحيدي كثير الملازمة لمجالس ابي سليمان والنقل عنه.
راجع : تاريخ الحكماء ٢٨٢ الفهرست ٣٦٩ . تاريخ حكماء الاسلام ٨٢

(٢) ورد ذكره في المقابسات : في مواضع عدة . وفي تاريخ الحكماء ٢٢٤ تحت اسم «ابو زكريا الضميري» .

قال عيسى بن زُرْعة[١] : قال بعض أَصحابنـا من النصارى ممن تَفَلْسَف وتقشّف وتَرهّب : كيف يُبصر الانسان مَعاده بعين الثقة ، وعقله مستأسر في بلاد الشهوات ، وأمله موقوف على اجتناء اللذّات؛ وسيرته جارية على أسر العادات؛ودينه مستهلَك بضروب الضَّلالات؛ والله لو انسلّ من نَفسه الغضوب ؛ ومن نَفَسه المرغوب ؛ وصار في باحة الصفاء،وفضاء الطهارة والسناء ، لكان الإلف الذي نشأ منشأه ، وقوي بقوته ؛ وزاد بزيادته وشرُفَ بامتداده يُقـذي عينه ، ويُدمي جبينه ، ويغطي عليه أُبنُه[٢] ، ويلفته عن سُنَّته ويُزل قدمـه في مسلكه ، فكيف وهو في الشهوات منغمس وفي الشبهات مرتكس[٣] . وعن الرياضة نائم ؛ وعن النـاصح مُعْرض ؛ وعلى المُرشِد مُعترِض ؛ والى ما يضر جانح ، وعمَّا ينفع نازح .

قال ابو الخير الخمّار[٤] : إنّما شقّ على الانسان الخروجُ من هذا العالم من ناحية تركيبه الذي كان به موجودًا في عالم الحس . ولو علِم انه بالتركيب كان انسانا ، وبالحكمة كان كاملًا علِم أنّ الوجود الذي كان له بالتركيب كان مستفـادًا من هذا البسيط،وأنّ أحد الوجودَيْن ظِلّ للوجود الآخر ، وان الظل زائل ، والشخص ثابت ، ولكن كما أنّ الانسان لا يُحسّ بما يبقى في النوع من بعده كذلك لا

---

(١) راجع ترجمته في تاريخ الحكماء ٢٤٥،الفهرست ٣٦٩ ، تاريخ حكماء الاسلام ٧٥.

(٢) أُبْنُهُ : عيبه

(٣) مرتكس : منتكس .

(٤) هو ابن سُواد بن بابا بن جرام ابو الخير البغدادي المعروف بابن الخمّار راجع ترجمته : تاريخ الحكماء ١٦٤ ، تاريخ حكماء الاسلام ٢٦

يُحسّ بما يبقى في العقل من بعده، فالف التركيب يجد عن الاستيحاش من البسيط لأنه عدم ما ينظر الحِس، أعني الموت ، والعدَم كونه جملة؛ الا انه كما شقّ على الانسان الناقص النَّقلة من هذا الوجه، هانت على الانسان الفاضل من ذلك الوجه ؛ لأنه اذا كان مُطّلعاً على الغيب ، منقطعاً عن الشهادة اقبل على بسيطه الذي كان غريباً من تركيبه وعلِم أنَّ هذه الحال إنّما هي تخيُّله تركيبَه الذي وَرِثه من الهيولي والصَورة الى بسيطه الذي ناله من الصُورة ، فهذا العِرفان في هذا المكان مسكنة للنفس ؛ ومَصْرفة للقلق ، ومجْلَبة للأُنس ، وها هنا يحدث الشوق الى الله تعالى والى الدار الآخرة والى ما اعدّ للعارفين والموحّدين له ، والطالبين لمرضاته ، والراغبين في خدمته ، والمجاهدين في سبيله والشائمين لوائح ما سطع[1] من عنده .

قال أبو سليمان : انما أُتِيَ الناس في اضطراب اسرارهم عند هذه الحقائق للغَفْلة الجاثمة على قلوبهم . فقال الاندلسي : ما الغَفْلة ؟ فقال : سهو الفؤاد بِرَكاكة المِزاج ، وبلادة الطِّباع ، ثم قال : والغَفْلة في اليقظة بإزاء الُحلم في النوم ، واليقظة في الحس بإزاء الاستضاءة في العقل ، وكما ان اليقظة في الِحس على نوعين كذلك الاستضاءة في العقل على نوعين ، فأَحدُ نوعيْ اليقظة في الِحس أَن صاحبها ينفذ في الامور الِحسّيّة ، ويتوغل فيها بمكر ودهاء وكيس وفِطانة واْحتيال ، والنوع الآخر في اليقظة أنّ صاحبها يُقبل على نفسه وجوهره وحقيقته فيعتني بمعرفتها ، والعناية بها بتربية العقل من حركات تعظّمِها بالعدالة

(١) في الاصل : ما سطح .

وسكنات تنيرها[1] بالسواء: وفي الجملة يلحظ عوالي الامور، ويتحلى بعالي الاخلاق، ويكون في ظاهره انسانًا مجهودًا، وفي باطن ظاهره مهذباً زكياً، وفي ظاهر باطنه ملكاً كريماً. وهذا تمثيل على تقريب، واللفظ ظلوم، والعبارة فتّانة، إما تضع الى النقص المتحيّف، واما ترفع إلى الزيادة المُفسدة.

واما أحد نوعي الاستضاءة في العقل فهو ما يحصل لهذا الانسان المَعْنيّ بخاصّة نفسه، المُعان على الاقتباس بعقله، القاصد الى اقتباس حياتهِ الدائمة من حياته الميتة المنقطعة، فان قلت وكيف يكون هذا؟ وهل يجوز ان يقتبس حياة دائمة من حياة منقطعة، فهذا اول غفلتك، وأجنى جانٍ عليك. انت قد تشعل سراجك من سراج آخر قد أشفى على الانطفاء، فيتصل الثاني وينقطع الاول. فان قلت: ان هذا الثاني اذا اشتعل فهو ايضاً الى الخمود، فاعلم ان ذلك انما هو كذلك لانك نقلت شيئاً من زمان الى زمان الحق متشابه حكما بما فيه، وهذا التشابه لا يعاند الحكم الأول اعني انه ان زَهَرَ[2] السراج الثاني باشتعاله من الأول الخامد. فأما المقتبس لحياته الدائمة من حياته المنقطعة فانه يسير من حياة زمانية الى حياة دهرية بدليل ان الزمان خليفة الدهر، فما كان محفوظ العين بالزمان كان محفوظ العين بالدهر، لا فاصلة بين الزمان والدهر، لأن آخر الزمان موصول بأول الدهر؛ والدهر زمان ولكن في هذا العالم، والزمان دهر ولكن في ذلك العالم، فلا تعجب من زمانيّ تحوّل دَهرياً بالمشابهة النفسيّة والمشاكلة الجوهرية،

(١) في الاصل: تريها

(٢) زهر السراج: أضاء

فالحياتان واحدة وان توسّطها الموت ؛ كما ان الشمس واحـدة ، وإن توسطتها الارض وأعني القرص قرص الشمس ، والشعـاع المبسوط على الارض .

تنفّس القول بما اعترض،وطال قليلًا ونرجع الى فض ما كنا عليهِ ونقول : وأما النوع الآخر فهو ما يكمل الانسان كمـالًا لا عبارة لنا عنه في هذا الوطن ، ولا خبر عنه عند احد من هذا النوع، وهذا هو الذي خلص من جميع ما دعا اليه الانبياء عليهم السلام ، وحضّ عليه الحكماء ، وتردد بين تعريض في غاية الحلاوة ، وتصريح في نهاية الخطابة ، وها هنا نستغني عن كل دليلٍ وبرهان ، وعن كل قيل وقال، لأن المطلوب يصير موجودًا ، والملتمس يصير مـدركاً ؛ والمبتغى يصير حاضرًا ، فما أولانا بعد الإشراف على هذه السبيل الواضحـة بالعقل ، المسلوكة بالقصد ان ننفق هـذه الايام اليسيرة القصيرة الساعات ، المحدودة المعدودة في طلَب هذه المراتب العلية، والدرجات الشريفة والاحوال الحسنة الكريمة .

***

وقال ابو سليمان: الناس في حديث الموت ثلاثة، فأما الغني ذو الجِدَة والقُدرة والثروة فهو يكره الموت بالبينة ، وفي مقابلته الفقير الشقي السيءُ البخت المحروم المرحوم ، وهذا على الضد يتمنّى الموت،والاول انما يكرهه لأنه يحب ان ينال اللـذّة ، ويغرق في الشهوة ويستمتع بالنعمة،وان كانت غايته في هذه الحال الـكلال والانحلال والانقطاع.

والثاني اعني الفقير إنما يتمنى الموت ليتخلص من الحسرة الخانقة،

والحرقة اللازمة ، والحاجة الفاضحة ، والأسف الراتب ، والضجر الغالب ، فهذان على تقابلهما منقوصان منحوسان قد. زلّا وضلّا وتردّيا في الهوّة السُّفلى وما لهما ناعش ، ولا ناصر ، ولا شفيق ، ولا ناصح .

قال : فأما الثالث فهو الحكيم الذي قد وَثِقَ بالمَعاد ، واطمأنّ الى حسن المنقلَب فهو يدأب في أخذ العتاد ، وإعداد الزاد للحياة الصافية التي هي في مقابلة الحياة الكَدِرة ، ويكون دؤوبه ونَصَبُهُ على قدر استبصاره وشوقه الى الله تعالى في وزن معرفته بالله ، ومطالعته على حسب يقينه في نفسهِ ، وخطواته على استقامة صراطه ، واجتهاده في مثال قربه ، وحنينه يتلو رقيه ، ورقيُه في وَزان صفائه ، وهذه مقالة لا تلج كل أُذن ، وصوب لا يلين به كل طين ، وعين لا يشرب منها كلُّ وارد ، وترنم لا يطرب عليها كل سامع ، ولحن لا يفهمه كل فَطِن .

قال : وإنما حرمت هذه الحكم لأن الناس قد ملكتهم الطبيعة ، وخدعتهم العاجلة ، وقَمَرهم[1] الشباب وخمرهم الشراب ، وسباهم الهوى ، وتحكم فيهم الردى . ولا جَرَمَ الحق كالبارق في عقولهم ، والحكمة كاللعقة على ألسنتهم ، لا في درجات الديانة يرتقون الى الجنة ، ولا بنصائح الحكم يتنقّون من أوساخ الشبهة والظنة . وكان أبو سليمان اذا نزل هذا الوادي من القول قام خطيباً ، فبذّ كلّ قائل ، وسبق كلّ جواد ، واستولى على كل أمد ، وأنشد أبو سليمان قول شاعرهم :

إنما العيش في بهيمية اللـــذّة لا ما يقوله الفلسفيّ[2]

(١) قمره : سلبه ماله .

(٢) في الوافي بالوفيات (مخطوط في المجمع العلمي العربي بدمشق) ترجمة محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني : لذة العيش .

حكمُ كأسِ المنون أن يتساوى　　في حساها الغبيّ والالمعي
ويصير الغبيّ تحت ثرى الأر　　ض كما صار تحتها اللّوذعي [١]
فسل الارض عنهما ان أزا　　لَ الشكَّ والشبهةَ السوآلُ الخفي [٢]

فقال : هذا النمط مفسدة للشباب الأغرار ، والذين ليست لهم بصيرة في الامور ، وهم عبيد الاحساسات الوافدة بالعادات الفاسدة ، والاعتقادات الرديئة بتلقين قرناء السوء ، وقائل هذا قد عاند الدين ، وخلع رِبْقَه [٣] الحياء ، وأفصح عن الفساد ، وصدّ عن الحكمة ، وقدح بزند الشبهة في النفوس الضعيفة ، والعقول الخفيفة . يا مسكين ! أمن أجل أن الصالح والطالح والعالم والجاهل صاروا تحت التراب يتساوون في العاقبة ؟ أما تساوى قوم سافروا من بلد الى بلد فلما بلغوا المقصد نزل كلٌّ واحد في مكان كان معدًّا له . وتلقّي بغير ما يلقى به صاحبه ؟ أما دخل قوم دارًا فأجلس كل واحد منهم في بقعة بعينها وقوبل هذا بشيء ، وهذا بشيء آخر ثم تقُول : سل الارض عنهما ! قد سألنا وخبّرَتنا أنها ضمّت أجسادهم وجثثهم وأبدانهم لا كفرهم وإيمانهم ، ولا أنسابهم وأحسابهم ، ولا حكمتهم وسفههم ، ولا طاعتهم ومعصيتهم ، ولا أقوالهم وأفعالهم ، ولا يقينهم وشكهم ، ولا زهادتهم وتسبيحهم ، ولا معرفتهم وتوحيدهم ، ولا خيرهم وشرّهم ،

---

(١) ورد هذا البيت في الوافي هكذا مصحّفًا :

ويحلّ البليد حيث يرى الار　　ض كما حلّ تحتها اللّوذعي

(٢) ورد بدلًا عن هذا البيت :

اصبحا رمة تزايل عنها　　فصلها الجوهري والعرضي

(٣) الرِبقة : العروة في الحبل ، وخلع الربقة : تحلل .

ولا جَوْرهم وعدلهم . والمنقلب إلى المعاد موقوف على هذه الحالات التي عددناها وعلى امثالها وان لم نعدها لا على الجثث البالية ، والابدان المتحللة ، واللحوم المنتنة ، والشحوم الذائبة ، والمَهل[1] الجاري ، وهذا كله خبر عن الأصداف ، فأين الخبر عن الدرر التي كانت في الاصداف ؟ واين الاعلاق من الحقاق ، وأين الامتعة من الأوعية ، واين اللطائف من الكثائف ؟ وأين القشور من اللب ، وأين الجواهر الباقية من الأعراض الفانية ؟

ثم قال : اعلم ان الناظر في هذا الكتاب رجلان : رجل ينظر الى الأشياء ورجل ينظر في الأشياء . فالأول يحار فيها لأنَّ صورها وأشكالها ومخاطيطها تستفرغ ذهنه ، وتستملك حسّهُ ، وتبدّد فكره فلا يكون له منها ثمرة الاعتبار ، ولا زبدة الاختيار ، واذا فَقَدَ الاعتبار في الاول فَقَدَ فائدة الاختيار في الثاني ، وأما الناظر في الاشياء فانه يتأنى في نظره ، وتأنيه يبعثه على التصفح البالغ ، والتصفح البالغ يؤديه الى تمييز الصحيح من السقيم ، والباقي من الفاني ، والدائم من العارض ، وما هو قشر مما هو لبّ ، وما هو شعار مما هو دثار ، وما هو شجرة مما هو ثمرة ، فيعلم حينئذ ان الدنيا قشرة الآخرة ، وان الآخرة لبّ الدنيا ، وان الموت صراط اليها والعابر على الصراط حريّ بجمع الزاد وتمهيد المهاد ، وان نشأه في هذه الدار لم يكن الاستيطان والخلود ، ولكن للجواز من مكان الى آخر يصلح للمقام والتبوء والتمهيد ، فان الانسان الى ذلك دعي بكل لغة وبكل ناموس وبكل لطيفة . فمن أطاع وأجاب فقد هدى الى سواء الصراط ، ومن أبي فقد تردّى

(١) المَهل : صديد الميت خاصة .

في هوة العذاب ، ولا سبيل الى الاجابة الا بعد رفض كل ما خدع النفس ، وخَبَل العقل ، وأضلّ الرأي ، وزيّن العاجلة ؛ وطرحَ التهمة في الآجلة وكان ينشد كثيراً :

النفس تشتاق الى قُدسها والجسمُ مطبوع على حبسها
وفعلها يخرج عن حدّه لالفها ما ليس من جنسها
وحبسها في السفل من علوها ادلُّ برهان على نَجْسها

فهذا هذا ؛ وعلى كل حال وبكل نظر ، فقد بان ووضح ان الظعن عن هذا المكان ضروري ؛ وان النيّة غير محتملة للبث لامور بادية وخافية ؛ فينبغي الآن أن نصدق البحث عن المصير الى الثاني أهو الى البقاء أو إلى الفناء والى الوجود او الى العدم ، والى الكمال او الى النقصان . أمّا لسان كل دين قديم أو حديث فقد أفصح عن البقاء والدوام والخلود السرمد في الثاني على اختلاف الحالات؛ واما الحكمة فبجميع اجزائها وفنونها قد نطقت ونادت الى الحياة الثانية بعد هذه الحياة المعروفة ؛ ولم يبقَ وراء هذين اللسانين البليغين الا ما يهذي به ناس سخُفَت عقولهم ؛ وخفَّت أحلامهم ؛ وزاغت آراؤهم ؛ وغلبت أهواؤهم ؛ وقَصُرَ نظرهم ؛ وخَبُثَت طباعهم فشقّ عليهم الاقرار بالمعاد والمنقلب وظنّوا انه متى لم تكن هذه الحال عياناً او كالعيان فانما هو ظنّ وتخيّل وحِسْبان . قال : ولو كان الأمر على ما زعموا لم يحتج الى العقل وبحثه ؛ والنظر واستنباطه ؛ والاعتبار وتمثيله ؛ وكان الشاهد كالغائب ؛ والغائب كالشاهد ؛ والظاهر كالباطن ؛ والباطن كالظاهر ؛ والعين كالأثر ؛ والأثر كالعين ؛ والراجم بهذا الظن مغرور ؛ والمتمني لهذه الحال مرحوم . ولا فرق بين هذا التمنّي

وبين من تمنى أن تكون جواهرُ البحر كلّها طافية على ساحله حتى يُكفَى مؤونة الغوص في قعره ؛ وذَهبُ الأرض كلُّهُ موضوعاً على حديدها[1] حتى يُكفَى العناء في استخراجه من معدنه؛ وتكون الجبال كلُّها مدكوكةً حتى يُكفَى مشقَّة صعودها في حوائجه ؛ وتكون ثمار الاشجار مدركة يانعة في كل أوان ومكان حتى يُكفَى التعب والسَقي والغرس والانتظار وعلى هذا باب التمنّي لا قفل عليه ولا حائل دونه . وأما اللبيب صاحب الحزم المصيب فهو الذي ينظر الى العالم نظرًا بالغًا صحيحاً تاماً ولا يعكسه عمّا هو به ؛ ولا ينكسه الى ما ليس عليه ؛ ويأخذ منه شهادة في شيء سمي بمعونة العقل النيّر ذي الشعاع المنتشر الذي فضل به على الجنس الذي هو منه وعلى كثير من نوعه الذي هو به حتّى ينكشف له بالعقل ما هو ملبوس بالحس ، ويتضح له بالحس ما هو غامض بالعقل، ويشهد له الذهن بما هو مجحود بالظن ؛ وينصحه <الادراك> فيما هو مغشوش بالوهم ؛ ويقربه اليقين مما يباعده الشك ثم لا يبقى اثر للتسويل والتضليل الا ممحواً ؛ ولا كدر في طلب المعتقد إلّا صافياً ؛ فحينئذ يصادف الحق غير مشكوك فيه ؛ ويدرك المراد غير مرتاب به ؛ ويوصل الى المطلوب ؛ واللبّ رخيّ ؛ والمشرب هنيّ ؛ والثقة حاصلة والطمأنينة واصلة وقلّ من يتدرج الى هذه الذروة إلّا بعد أن يكون وثيق العروة ؛ صحيح البصيرة ؛ قوي العزيمة ؛ محكم الأَصل ؛ مرهف النصل ؛ وهذا قليل ومع قلته مأمول .

وقلت يوماً لأبي سليمان : أنشدني جماعة من أهل الريّ لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي بيتين وهما :

(١) كذا في الأصل ولعله جددها او صدرها

لعمري لا أدري وقد أذَّن البِلَى بعـاجل ترحالٍ الى أين ترحالي ؟
وأين مـكان النفس بعد خروجهِ من الهيكَل المنحل والجَسَدِ البالي ؟

فقال : وما علينا من جهله اذا لم يدرِ الى أين ترحاله ، أما ترحالنا فالى نعيم دائم ؛ وخلود متصل ، ومقام كريم ، ومحـل عظيم في جوار من لـه الخلق والأمر ، وهو الأول بالحق والموجود بالضرورة ، والمعروف بالفطرة ، والمشتاق اليه في السر والعلانية ، والمفزوع اليه بـكل اشارة وعبارة ، والمشهود بـكل سكون وحركة ، والمستعان به عند كل نائبة وفادحة ، والمعهود منه كل برٍّ وكرامة ، الذي لا يسمح الخاطر الّا بهِ ، ولا تعنو النفس الّا له ، ولا يسكن القلب الّا معه ، ولا يطمئن الفؤاد الّا بذكره ، ولا يـدرك النجاح الّا بتوفيقـه ، ولا يطرب الّا بنسيم لطفه ، ولا يطرد امد الّا بعنايته ، ولا يستقيم ذو أوَدَ الّا برفقه ، ولا يفيءُ شارد الّا بتأليفه ، ولا ينقاد مارد الّا بتلطفه ، ولا يسلك طريق الّا بهدايته ، ولا يُنْجَا من كريهة الّا بكِلاءتـه ، ولا يتعجب الّا من صنعه ، ولا يصاب بَرْدُ اليقين الّا بفضله ؛ ولا يُتَهنّأ الّا بعطائه ، ولا تنال السعادة الّا باختصاصه ، ولا يعرف نعت شيء الّا باقتصاصه ، ولا يطرب الّا بترنم ذكره ، ولا يتبرك في أمر الّا بتقديم ذكره واسمه ، ولا يُجَابُ بَلَدٌ وَعْر الّا بدليله ، ولا يعالج عسير الّا بتَسهيله ، ولا يقطع أمر الّا بتقـديره ، ولا يدرك مأمول الّا بتيسيره ، ولا يستولى على الأمد الّا بطاعته ، ولا يعتز الّا بمعرفته ، ولا يوثق الّا بـكرمه ، ولا يُحظى عنـده الّا بتوحيده ، هو الذي وهب الاحساس ليُسْتَمْتَع بنعمه ، وكرر الانفاس

حتى تجال في أكناف ملكهِ ، ومنح العقول حتى يُستضاء بنورها في تصفح عالمه ، وحشا الملكوت بالعجائب حتى يحـار في قدرته ، وأبرز اموراً حتى يعترف بالآهيتـه ، وغيّب اموراً حتى يـكون مستبدًّا بربوبيته ، فالجود ظاهر بالموجود ، والقـدرة جارية بالتصريف ، والحكمة شائعة بالنظام ، والحاجة قائمة الى التوفيق ، والثقة مستحكمة بالكرم ، والايمان ثابت في القلب ، والمعرفة مريعة في النفس ، والتمجيد معقود باللسان ، والجوارح منصرفة بالعبودية ، والشوق حديد الى اللقاء .

فالحمد لله على ذلك كله بخالص عقيدة السر وغاية قوة البشر . فهذا هذا .

وأما ترحال ابن زكريا فالى محل الحيرة ، ومطمأن الحسرة ، بحسب ما ضل وأضل وهان وعز واعتز ، لأنه حلّق بالـدعوى في كتبه حتى ظننّا انه ملك ، وأسفَ بالشك حتى تيقنّا انه قد هلك والسلام .

***

قد أتينا على الغرض في هذه الرسالة على ما تقدم الوعـد به من شرح اصناف الحياة ، واضافة اللمع المضمومة اليه بقدر الوسع وأرجو ان يـكون مـكانه من نفس الحاث على تصنيفـه غير نابٍ ، ورضاه عني فيه غير متعذّر ، على اني والله ما كتبته الا بعـد جمود الخاطر ، وفلول الحد ، وعوز النشاط ، فقـد علت السن ، ونهـكت الـكبرة ، وانحنى الصلب ، وذوى الفهم ، وهرم الذهن ، وغلب الوسواس ، وأزف الرحيل وبيد الله الفرج ، واليه المعراج والمعرج وعليهِ التوكيل .

تمت الرسالة والحمد لله وحده ، والسلام على من لا نبي بعده وعلى الهِ واصحابهِ آمين .

تمت سنة ٩٧٣

فهرس الاعلام

(١) اشارة الى المقدمة .

فهرس الامم والفرق والجماعات

فهرس الامكنة والبلدان

فهرس اسماء الكتب الواردة في رسائل التوحيدي

المصادر المعتمدة في نشر رسائل التوحيدي

المصادر العربية :

– إرشاد الأريب الى معرفة الأديب عشرون جزءا القاهرة ١٩٣٦
– البداية والنهاية لابن كثير اربعة عشر جزءا القاهرة ١٩٣٢
– الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري جزءان تأليف المستشرق آدم متز وتعريب محمد عبد الهادي ابو ريدة القاهرة ١٩٤١
– الإشارات الالآهية والانفاس الروحانية لأبي حيّان التوحيدي (مخطوط في دار الكتب الظاهرية بدمشق)
– الصداقة والصديق لأبي حيّان التوحيدي القاهرة ١٣٢٣
– الفهرست لابن النديم القاهرة ١٣٤٨
– الامتاع والموآنسة لأبي حيان التوحيدي ثلاثة اجزاء ١٩٣٩ ، ١٩٤٢ ، ١٩٤٤
– المقابسات لأبي حيّان التوحيدي (طبعة بومباي الحجرية) ١٣٠٦
– الوافي بالوفيات للصفدي (مخطوط في المجمع العلمي العربي بدمشق)
– كتاب الانساب للسمعاني (طبعة مارغليوث) ليدن ١٩١٢
– بغية الوعاة للسيوطي القاهرة ١٣٢٦
– بصائر القدماء وسرائر الحكماء لأبي حيّان التوحيدي (مخطوط)
– تاريخ الحكماء لابن القفطي ليبسك ١٣٢٠ – ١٩٠٣
– خلاصة تذهيب الكمال في اسماء الرجال للخزرجي القاهرة ١٣٢٢
– شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ثلاثة اجزاء القاهرة ١٣٢٩
– طبقات الشافعية للسبكي ستة اجزاء القاهرة ١٣٢٤
– كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون جزءان استانبول ١٣١٠
– مفتاح السعادة لطاش كبري زاده جزءان حيدر آباد ١١٢٣
– وفيات الأعيان للقاضي ابن خلكان جزءان القاهرة ١٢٩٩

المصادر الأجنبيّة :

BROCKELMANN (C.) : *Geschichte der Arabischen Litteratur.* 5 vol. Leiden, 1937, 1938, 1942, 1943, 1949.

HARTWIG DERENBOURG : *Les Manuscrits Arabes de l'Escurial.* Paris, 1884.

KRAFFT : *Die ar, pers. und turk Hass. der k. k. Orientalischen Akademie zu,* Vienne, 1842.

Ars Islamica, Vols XIII - XIV, 1948.

تمّ طبع هـذا الكتاب
في المطبعة الكاثوليكية
بيروت ، في الثلاثين من
تشرين الثاني سنة ١٩٥١

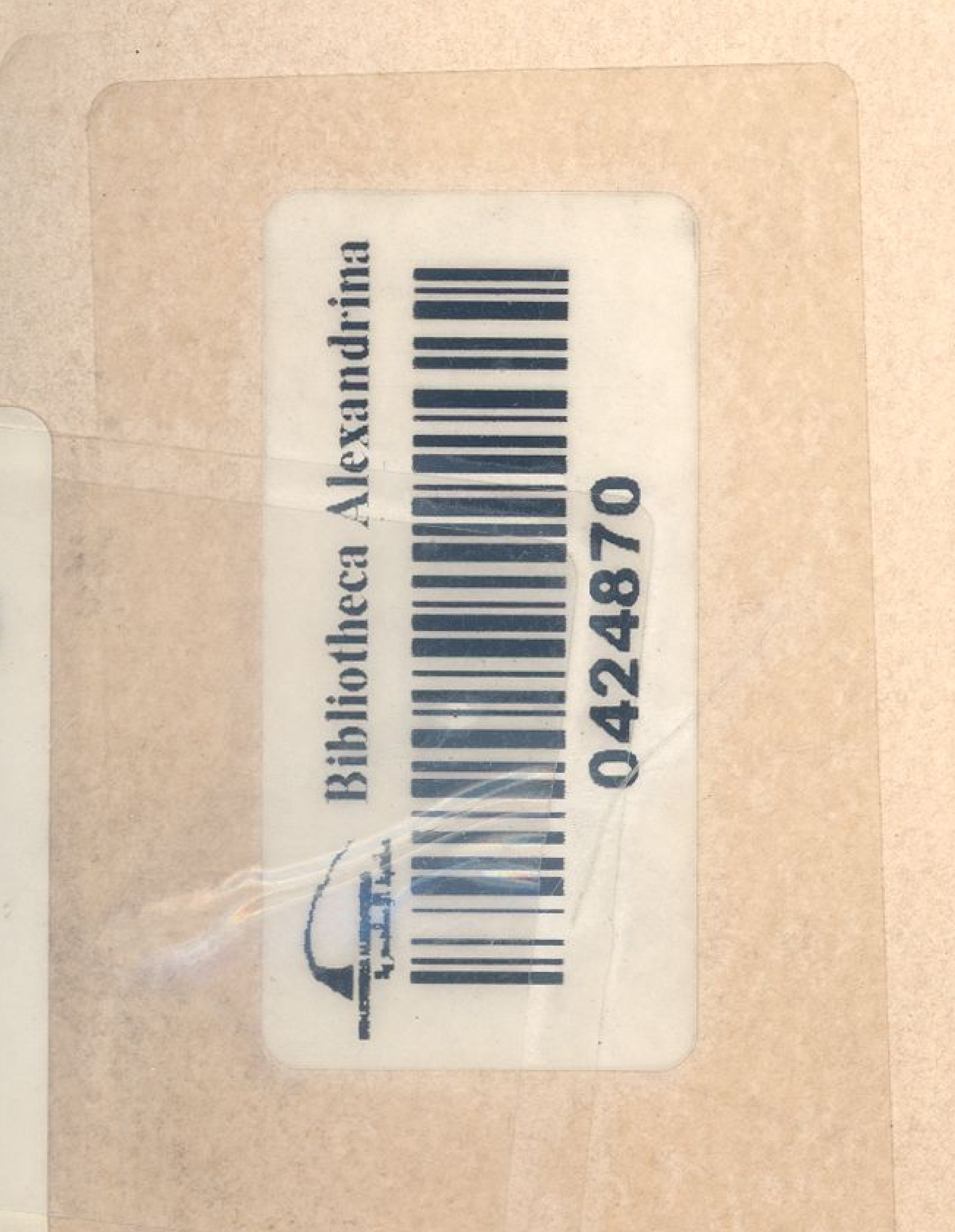
INSTITUT FRANÇAIS DE DAMAS

TROIS ÉPITRES

D'ABŪ ḤAYYĀN AT-TAWḤĪDĪ

éditées par

IBRAHIM KEILANI



DAMAS
1951